المقدمة:

إن اختيار موضوع الأهواء والميول بالنسبة لي ناتجٌ عن خبرتي كراع ومرشد للعديد من الشباب والشابات. فبعد أن سمعت ورأيت فكرت كيف أقدمها لهؤلاء الأحباء. فتأملت كثيراً في هذا الموضوع، وقرأت بعض الكتب التي قد تساعدني، ولكن كان تركيزي على خواطري أكثر.

لم أنتبه قط لسماع كلمة "أعمل حسب أهوائي، أو حسب مزاجي". وأشعر في داخلي بردود فعل كثيرة وعديدة، لا مجال للاستطراد فيها. ورأيت أن أتحدث عن الأهواء والميول، ماهيتها، وأنواعها، ونتائجها، والعلاج منها وكيفية توجيهها وتهذيبها.

نماذج حية تعبر عن الأهواء والميول

النموذج الأول عن الميل إلى الخمر

في وسط حر الظهيرة الشديد دخل عجوز سكير إلى حانة في فندق قديم بإحدى البلاد. وبدأ يسأل رجال الحانة ليشتري كأس خمر، فرفض الجميع. فمن باب السخرية، قال له شاب بحار: أعطيك كأس خمر أيها العجوز إن عدت إلى المائدة، وانحنيت بيديك وركبتيك على الأرض، ومشيت كالكلب نحو البار، وعويت تطلب أن تشرب. وتحت ضغط الرغبة في السكر، قبل الشيخ أن يقوم بهذا وسط سخرية الحاضرين، فانحط بإنسانيته ليمارس حركات وصوت حيوان من أجل كأس خمر، ولعلها صورة مؤلمة للإنسان متى استعبدته شهوة وخضع لها ولأهوائه.

نماذج أخرى للأهواء العاطفية

يروي لنا التاريخ عن أنطونيو الجبار الذي نسى كرامته، ولم يفكر في عرشه ولا شعبه، وانطلق وراء محبوبته كليوباترا الجميلة الهاربة يلاحقها، فقد كل شيء.

يُحكى عن الفنان الشهير فان جوخ الذي تعلق قلبه بإحدى فتيات الملاهي، سحرته بجمالها، حتى ذاب كيانه في فتنتها الطاغية، فأسرف في عواطفه وماله حتى قطع إحدى أذنيه ليهديها إليها كطلبها، ثم دخل مستشفى للأمراض العقلية لتنتهي حياته بالانتحار في عام 1890 م.

لا ننسى ما سمعناه عن الباشوات قديماً وهم يطارحون الغرام للفتيات اللواتي كن يعملن في الملاهي الليلية. ويهبطون إلى أسفل راكعين على الأرض، وهم يجرعون الخمر من كعوب أحذيتهن.

هذه نماذج وصور من الحياة، توضح لنا ما تصنعه الأهواء والميول في الإنسان. وتوضح بالأكثر ما يصل إليه الإنسان الذي يسير وفق مزاجه وأهوائه.

معنى الأهواء والميول

من خلال ما سبق طرحه من نماذج حية نستطيع أن نعَّرف الهوى والميل.

فالهوى هو ميل النفس الشديد إلى ما تحب وتشتهي، وإلى ما تستلذه من الشهوات .

الهوى هو الميل الشديد الذي يسخر النفس، ويقهر الإرادة، ويرغمها على الاتجاه لموضوع معين يأخذ بمجامع القلب .

ما الذي يدفع الإنسان لينحط بذاته ويمثل الكلب؟ ما الدافع الذي يجعل إنساناً يركع إلى الأرض وكأنه يسجد ويتعبد أمام كائن آخر لأحتساء كأس الخمر ؟

ما الذي أرغم الإنسان أن يترك ذاته وكأنه ريشة في مهب الريح ليسير وراء محبوبة أو عشيقة من وطن إلى وطن آخر ؟

أليس الهوى هو الذي يصنع بالإنسان كل هذا ؟

أليس الإنسان هو الذي يترك ذاته لتحطمه أهواءه وميوله وشهواته؟ الإنسان الذي لا يرغب في ضوابط لذاته بل يريد أن يترك ذاته لمزاجه يعبث به كما يشاء .

الهوى يسخر الشهوات والميول لاستغلال الإنسان، وامتلاك الإنسان الكلي والشامل، فالهوى يستغل الشهوة. لأن الشهوة هي الرغبة الشديدة في التمتع باللذات الحسية والانغماس فيها.

إن الشهوة تتعلق بإرضاء جميع منازع النفس، وخاصة الحسية وهي رغبة واعية تسوق الإنسان إلى العمل والفعل.

الهوى يستغل الميل. لأن الميول مصحوبة بالإدراك والفهم والوعي بالغاية المراد بلوغها.

والهوى في اللغة هو الميل، والعشق، وميل النفس إلى الشهوة، وهو **"المزاج"** بالمعنى الشعبي.

ويقول القديس بولس:

"التي سلكتم فيها قبلاً حسب دهر هذا العالم حسب رئيس سلطان الهواء الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية. الذين نحن أيضاً جميعاً انصرفنا قبلاً بينهم في شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار وكنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضاً" (اف2:2-3)

هاتان الآيتان تكشفان لنا: عن الأشخاص الذين يرغبون أن يعيشوا حسب أهوائهم ومزاجهم، بأنهم معرضون أكثر من غيرهم، ليتسلط عليهم عدو الخير، مستغلاً في ذلك سلطانه **"رئيس سلطان الهواء"** ولأن الهوى يبعث في النفس الميول والشهوات وبالتالي يفرض على الإنسان سلوكاً بحسب الجسد حسب الهوى.

"الهوى الحار كنار ملتهبة فلا ينطفئ إلى أن يشبع . الإنسان الذاتي بجسده البشري لا يكف إلا أن تأكله النار. الإنسان الذاتي كل طعام يحلو له فلا يهدأ إلا أن يموت" (بن سيراخ 17:23) فالذي يترك نفسه للأهواء والميول والشهوات تكون بداخله نار ملتهبة لا تنطفئ حتى الموت، لأنها لا تشبع ولا ترتوي. هذه هي نار الهوى .

أخي الحبيب:

لا تترك ذاتك فريسة للمزاج أو الأهواء فإنها ضارة بالصحة والحياة.

أعطِ فكرك وقلبك وإرادتك

أعطِ طاقتك وقدرتك لله.

إذا أردت الصفاء والنقاء أطرد من فكرك وقلبك الأهواء. تستطيع أن ترى وتنظر الحياة تنعم بالهدوء والاستقرار والهناء.

أخي :

لا تستسلم للأهواء ففيها ذل واستعباد وكل نفس حرة كريمة ترفض الرق والاستعباد، كن حراً بما وهبك به الله.

أنواع الهوى والميل

اعتاد الناس قديماً، تقسيم الميول والأهواء إلى أنواع. نميز نحن بين ميول وأهواء عن ميول وأهواء أخرى: فليست كل ميول وأهواء الإنسان فاسدة ، وغير مقدسة. بل نجد أيضاً أن هناك في باطن الإنسان ميولاً حقيقية وصادقة ومقدسة تريد أن تعبر عن نفسها، وترغب في الخروج للنور والحياة. هذه الأهواء تعبر عن ذاتها في داخل الإنسان عن طريق الاشتياق والرغبة.

1- **الأهواء والميول المقدسة :**

الإنسان كائن متدين وروحي، في داخله اشتياقات واشتهاءات روحية. ونستخدم هنا كلمة اشتهاء أكثر من كلمة شهوة، لأن هناك فارقا بين الكلمتين، فكلمة شهوة تستخدم للشهوات الحسية والمادية والتي تكنّ بالإشباع أو تهدأ حال تحقيقها وتترك الإنسان في حالة قلق واضطراب. بينما كلمة الاشتياق والاشتهاء تستخدم للتعبير عن الشوق الروحي، الذي لا ينتهي أبداً والذي يجعل الإنسان يعيش في سلام واستقرار . والشوق داخل الإنسان هو أكثر حدة وقوة من مجرد رغبة عادية.

"تشتاق بل تتوق نفسي إلى ديار الرب " (مز 2:84)

" هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله" (مز 1:42)

"اشتهيت شهوة شديدة أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم" (لو15:22)

"وأنا في نزاع بين أمرين: فلي رغبة في الرحيل لأكون مع المسيح وهذا هو الأفضل جداً جداً " (فيل 23:1)

الميول المقدسة هي التي تعبر عن شهوة مقدسة ورغبة مقدسة وتسعى للصلاة والعبادة والترابط مع الله ومعرفة الله والعمل الإنساني النبيل والمشرف، والقديس بولس يكمل في الآية ويقول:

"... غير أن بقائي في الجسد أشد ضراوة لكم. وأنا عالم علم اليقين بأني سأبقى وسأواصل مساعدتي لكم جميعاً لأجل تقدمكم وفرح إيمانكم." (فيل 24-25)

القديس بولس في تكملة الآية لنا يركز على أن مساعدة الآخرين، وبناء الآخرين إنسانياً وروحياً، ضمن الرغبة المقدسة أو الاشتهاء المقدس. لأنه لا يريد أن يترك الذين في حاجة إليه ويطلبون مساعدته للتقدم والنمو في الإيمان والفرح الإنساني في ظروف قاسية، فكل تكريس للميول والرغبات والطاقات وتوجيهها للعمل الإنساني البناء يدخل ضمن الميول المقدسة . وخاصة أن العالم يحتاج لمثل هؤلاء للعمل في المجال الطبي والنفسي والعلمي، وذلك بالاهتمام بكبار السن، والمرضى النفسيين، والأطفال، واليتامى .... الخ

2- **أهواء وميول خسيسة ودنيئة**

وكما رأينا سابقاً أن داخل النفس أهواء وميول مقدسة، فلا نستعجب لأن في داخل الإنسان أهواء وميولا خسيسة ودنيئة. هذا الإنسان الذي يسعى وراء أهوائه وميوله السفلى أو الخسيسة لم يكتشف قيمة حياته بعد، لذا نجده يترك ذاته تسعى نحو التراب. ويقال عنها النفس الترابية، لعشقها ورغبتها فيما هو ترابي وأرضي؛ وخسيس، مثل البخل، وحب المال، وشرب الخمر، والزنى. وتتجاهل هذه النفس قيمتها الروحية والخالدة أو تتناسى حياتها الأبدية . فهي تشبع الجسد وتنسى الروح. تنظر إلى الأرض والتراب ولا تلتقي بأصلها الروحي السماوي.

"قوم مستهزئون سالكين بحسب شهوات فجورهم، هؤلاء هم المعتزلون بأنفسهم نفسانيون لا روح لهم" (يهوذا1:18-19)

"ولكن الإنسان الطبيعي(أي النفساني) لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة. ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يَحكم فيه روحياً". (1كو2:14)

"وأقول لنفسي : يا نفسي، لك أرزاق وافرة تكفيك مؤونة سنين كثيرة فاستريحي وكلي وأشربي وتنعمي" (لو12:19)

"ولذلك أسلمهم الله بشهوات قلوبهم إلى الدعارة يشينون بها أجسادهم في أنفسهم" (رو1:24)

حينما لا يكون الله حاضراً في قلب الإنسان يتصرف هذا الإنسان وفق ميوله وأهوائه التي تنعكس على أخلاقه وتصرفاته، وتصل به إلى درجة من الانحطاط الأخلاقي والإنساني الذي يجعله أقل إنسانية. فعدم وجود الله في قلب الإنسان، تترفع الأهواء والميول فتصل لأن تكون السيد والرب والإله لهذا الإنسان، فتستعبده وتخضعه لها فيعمل بما تمليه عليه من أفعال وتصرفات مجنونة مثلها.

3- **أهواء وميول محايدة:**

في داخل الإنسان أهواءٌ وميول عادية جداً وطبيعية جداً. ولكنها تأخذ موقفاً محايداً ومتوسطاً. فهي تحتاج إلى توازن في طريقة الاستجابة لها. وفي إمكان هذه الأهواء والميول المتوسطة أن ترتفع بالنفس إلى درجة الأهواء والميول المقدسة. وفي إمكانها أن تهبط بالنفس إلى الخسة والدناءة كما في الأهواء والميول الخسيسة والدنيئة. هذه الأهواء والميول وجودها كأنه لأجل اختبار النفس لذاتها واكتشاف قوة إرادتها، وضبط النفس أو التحكم الذاتي. وضعت للإنسان لأجل أن يثبت بالفعل والعمل كيفية تحقيق حياة متزنة وملتزمة.

"يا بني امتحن نفسك في حياتك وأنظر ماذا يظهرها وأمنعها عنه. فإنه ليس كل شيء ينفع كل أحد ولا كل نفس ترضى بكل شيء" (ابن سيراخ 37:27-28)

"كل شيء يحل لي، ولكن ليس كل شيء ينفع. كل شيء يحل لي، ولكن لن أدع شيئاً يتسلط عليّ." (اكو6:12)

يضع هنا القديس بولس الإنسان أمام محك أو اختبار أساسي وهو أن على الإنسان أن يختار ما يوافقه ويلائمه ويساعده في النمو والبناء، وأن يتجنب ما لا يوافق ولا يساعد على البناء، يختار الإنسان ما يوافقه لحياته المسيحية والإنسانية ويتجنب ما لا يوافق سلوكه إنسانياً ومسيحياً.

نعم هذه الأهواء والميول والرغبات ليست خطيئة أو فاسدة، كما أنها ليست مقدسة أيضاً، فهي طبيعية جداً وعادية جداً . ولكن طريقة الاستخدام وأسلوب الاستجابة يمكن أن يصل بها إلى التطرف. والإنسان يسعى للاتزان.

"لا تشره إلى كل لذة، ولا تنصب على الأطعمة. فإن كثرة الأكل تجلب المرض والشره يبلغ إلى المغص. كثيرون ماتوا من الشره، أما القنوع فيطيل حياته" (ابن سيراخ37:29-31)

فالطعام في حد ذاته ليس بخطيئة ولكن الشراهة في الأكل تؤدي بالإنسان إلى أمراض صحية كثيرة، مثل المغص، والتلبك المعوي والتخمة، وربما يصل الأمر بالإنسان إلى الموت كما جاء في الآية السابق ذكرها.

شهوة الطعام طبيعية وضرورية للإنسان. ولكن عدم الاعتدال فيها يودي بحياة الإنسان. وهناك أناس يعيشون ليأكلوا، ولا يأكلون ليعيشوا.

"نأكل ونشرب لأننا غداً نموت".

"الطعام للبطن والبطن للطعام، والله سيبيد هذا وذاك". (1كو6:13)

إن الميل لإقامة علاقات إنسانية ليست خطيئة. ولكن العلاقات الإنسانية مثل الصداقة قد ترتفع بالنفس إلى مستوى عال من السمو، وقد تهبط بالنفس إلى أحط المستويات، فلدى الإنسان هوى وميل لهذا الشخص أو ذاك، ولكن على الإنسان أن يحسن الاختيار في نوعية الأشخاص الذين يتعامل معهم، ويعاشرهم لأن "المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة"، وهذا جانب سلبي في العلاقات الإنسانية يهبط بالإنسان إلى أسفل. إذ يؤدي إلى الفساد والانحطاط.

"وكان لما فرغ من الكلام مع شاول أن نفس يوناثان تعلقت بنفس داود وأحبه يوناثان كنفسه" (1صم18:1)

"فقال يوناثان لداود: مهما نقل نفسك أفعله لك" (1صم20:4)

فهناك تعلق نفسي بين يوناثان وداود. حتى أن يوناثان يحب داود كنفسه. ويدافع عنه أمام والده الملك شاول.

"لا تكونوا مقرونين بغير المؤمنين في نير واحد" (2كور6:14)

"وأي شركة بين المؤمن وغير المؤمن" (2كور6:15)

هناك ارتباط وصداقه بشرية في إطار العلاقات الإنسانية ترفع النفس وتعطيها الإحساس بالأمان والاطمئنان.

وهناك ارتباطات تقود للإثم والشر والخطيئة، فيجب علينا أن لا نلتزم بمثل هذه الارتباطات وأن كان هذا الموقف يأتى ضد أهوائنا أو ميولنا لذلك لكي ننجو بأنفسنا. فشهوة الجنس في إطار الحياة الزوجية تعتبر طبيعية وعادية ومقدسة. ولكن ننادي بالاعتدال أيضاً لئلا يكون ما ينطبق على شهوة الطعام ينطبق أيضاً على شهوة الجنس في الإطار الزوجي. يجب الاعتدال فيه لتربية الإرادة وتقوية جهاز ضبط النفس في الإنسان، واختبار مقدار قوة الأحكام أو مدى فاعلية جهاز التحكم النفسي.

"لا يمنع أحدكما الأخر إلا على اتفاق بينكما وإلى حين كي تتفرغا للصلاة، ثم عودا إلى الحياة الزوجية لئلا يجربكما الشيطان لقلة عفتكما وأقول هذا من باب الإجازة، لا من باب الأمر فأني أود لو كان جميع الناس مثلي " (1كور7:5-7)

وهنا نجد القديس بولس يجيز فترات الامتناع عن الفعل الزوجي بين الزوجين، لكنه لا يجعله واجباً بل نصيحة غالية، وإذا كانت هكذا نصيحته في إطار علاقة شرعية بين الزوجين. فماذا يكون موقفه إزاء الذين يمارسون التسري والزنى ؟

"أما الجسد فليس للزنى، بل هو للرب والرب للجسد" (1كور7:13ب)

"اهربوا من الزنى، فكل خطيئة يرتكبها الإنسان هي خارجة عن جسده، أما الزنى فهو يخطأ إلى جسده". (كور 7:18)

يمكن للإنسان أن يضبط ذاته في الشهوة الجنسية، ويمكن له أن يعيش الإباحية بلا ضوابط. فإن كانت وصية بولس للمتزوجين هي الاعتدال في الحياة الزوجية أقصد بالفعل الزوجي في الحياة الزوجية، فبالأحرى يطالب غير المتزوج بالالتزام بالعفة وضبط النفس. والتسامى بالطاقة الجنسية. ولا يسمح لنفسه بأن يهبط بالطاقة الجنسية إلى مستوى الغريزة الجنسية التي هي قريبة من الحيوانية، وذلك لأن الطاقة الجنسية لها بعدها الإنساني الأصيل التي تتعالى وتتسامى بالشخص إلى فوق.

وهكذا أيضاً بالنسبة لشهوة المال، وشهوة السلطة يمكن للإنسان أن يرتفع بهما، ويمكن الهبوط والضياع بسببهم.

خلاصة:

من خلال ما سبق شرحه، نخرج بهذه الخلاصة أن توجد:

(1) أهواء وميول مقدسة مثل العبادة والصلاة والعمل الإنساني والبناء وهذا ينال التشجيع.

(2) هناك أهواء وميول خسيسة ودنيئة مثل الزنى والطمع والبخل ومن هذا النوع نحذر الإنسان تحذيراً شديد اللهجة.

(3) هناك أهواء وميول طبيعية وعادية جداً. وتأخذ وضع الوسط بين الأهواء المقدسة، والأهواء الخسيسة. وبإمكان الإنسان التسامي بها، وبإمكانه أن يهبط بها. وهي مثل العلاقات البشرية والإنسانية، شهوة **الطعام ... الخ.**

أسباب الأهواء والميول

قبل الحديث عن الأسباب، لابد لنا أن ندرك القليل عن المركز الذي يمكن أن تتركز فيه الأهواء والميول .

تتركز الأهواء والميول داخل الإنسان، في باطنه وكيانه الداخلي أي القلب .

القلب هو عبارة عن غرفة العمليات في الإنسان. هذا القلب الذي يشبه بقاع البحر العميق والمملوء بالأسرار والعجائب. فالقلب هو المعمل الذي فيه تتم عملية الانفعالات، وفيه يتم الخلط والمزج بين الأهواء والميول والرغبات المختلفة.

القلب هو الدائرة الصغيرة التي تتحكم في كل كيان الإنسان.

إذا كان القلب عرشاً لله، كانت الميول مقدسة، خاضعة للسيد الجالس على العرش. وإذا كان القلب عرشاً للشرير، فتكون الميول والرغبات خاضعة له .

لقد كان سليمان الملك حكيماً في بداية حياته الملوكية، لأنه كان ملتزماً في عشرته مع الله. وبالتدريج فقد سليمان هذه الحكمة، والسبب واضح جداً وهو أن سليمان ترك الأهواء والميول تستولي على قلبه، وترك مشورة الله. فانجذب سليمان وراء رغبات القلب، ففقد النور الإلهي والحكمة السامية.

"لم يرفض لقلبه طلباً" (جا10:2)

أولاً : كثرة الطعام والوقوع في الشراهة

رأينا سابقاً أن شهوة الطعام طبيعية، وتظل طبيعية طالما فيها اعتدال. ولكن الحديث هنا عن كثرة الطعام لدرجة الشراهة. فامتلاء البطن للنهاية، يعطي للميول والأهواء فرصة للتجلي والخروج من مكانها. ولذا نجد بعض الأشخاص لا يتركون أنفسهم على هواها أثناء الطعام، فهم لا يفضلون امتلاء البطن بالطعام. وهناك من يفضلون عدم تناول الطعام على الإطلاق وخاصة وهم ذاهبون لفراش النوم. والبعض يفضلون حياة الصوم والزهد، أو الامتناع عن بعض الأطعمة الدسمة. والعبرة لدى البعض بأن الجوع المادي لا يعطي فرصة لتحكم الأهواء والرغبات في الإنسان. وفي حالة الامتلاء والشبع، يذهب الإنسان من هوى إلى آخر، ومن ميل إلى ميل آخر.

يقول **القديس يوحنا كليماكوس**[1] **" الصّوام يصلي بتيقظ، ربما جلس شيطان على معدة إنسان فلا يشبع ولو أكل أو شرب كثيراً. فإذا امتلأ ذهب إلى شيطان الزنى وأخبره قائلاً قد امتلأت بطنه فأدرجه ونجسه بغير تعب، فيأتي بالنوم ويدنس النفس والجسد"**.

القول واضح جداً، فالشيطان لا يجد صعوبة في اصطياد فريسته، لأنها في حالة التخمة تصبح بطيئة الحركة بسبب كثرة الطعام تساعد الإنسان على الكسل والتراخي بل وتذهب بالإنسان إلى حالة النوم. وبالتالي يفقد حالة اليقظة والسهر الروحي فيكون الإنسان فريسة سهلة لعدو الخير. والكتاب المقدس يذكر لنا هذا الموقف.

"وطبخ يعقوب طبيخاً فأتي عيسو من الحقل وقد أعيا . فقال عيسو ليعقوب أطعمني من هذا الأحمر لأني قد أعييت. لذلك دعي أسمه أدوم. فقال يعقوب بعني اليوم بكوريتك. فقال عيسو ها أنا ماضي إلى الموت فلماذا لي بكورية. فقال يعقوب أحلف لي اليوم فحلف له فباع بكوريته ليعقوب. فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس. فأكل وشرب وقام ومضى. فاحتقر عيسو البكورية" (تك 25:29-34).

شهوة الطعام جعلت عيسو لا يقدر قيمة البركة، والعطية، والنعمة. لا يقدر قيمة حياته، ولا قيمة الأبدية. الإنسان بسبب المادة، الخبز والطعام، والمال يبيع نفسه بأبخس الأثمان، وبأقل تكلفة. والعالم اليوم مملوء بالأخ عيسو الذين يستهين ويتهاون ويتساهل في أمور عظمى، مقابل لا شئ.

"فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان. فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر" (تك 3:6-7)

النص واضح ومعروف. ولكن هلّم نتابع معاً الأفعال المستخدمة فيه.

المرأة، نظرت، فاشتهت، أكلت، وأعطت آدم فأكل، وشبع، ولكن من الناحية الأخرى هما عريانان. لم يتوقعا أن يحدث لهما هذا، بل يعلمن علم اليقين بهذا القول الذي جاء على لسان حواء:

"فقال الله : لا تأكلا منه ولا تمساه كيلا تموتا " (تك3:3)

معنى هذا معرفة حواء وآدم بخطورة الأكل من هذه الشجرة، التي تؤدي إلى الموت.

ما الفائدة أن الإنسان يأكل ما يشتهي ويملأ بطنه، ويجد نفسه متجرداً من ثياب النعمة من ناحية أخرى؟

أعتقد أن منع الله لآدم وحواء من الاقتراب من هذه الشجرة دون عن كل شجر الجنة، هو لتلقين الإنسان درساً. بأن لا يترك نفسه على هواها ويمضي معها إلى حالة الشبع النهائي في كل ما تميل إليه أو تشتهيه، وخاصة أن آدم وحواء كانا في الفردوس الأرضي، وليس في الفردوس السماوي. قصة توضيحية أراد أحد صيادي الطيور أن يصطاد نوعاً من الطيور سريع الطير والتحليق في السماء، ولم يستطع. ففكر في حيلة ليوقع به، وهي أن يقدم لهذا الطير كمية ضخمة من الطعام ويتركه يأكل هذا الطعام للنهاية. وبعدها يثقل جسده ولا يستطيع أن يحلق نحو السماء والطيران بالسرعة المعهودة فيه وبالفعل حدث كل ما جاء في خطة الصياد لأجل الطير.

وهكذا عدو الخير، يستخدم نفس الأسلوب مع المؤمنين المرتفعين بنظرهم نحو السماء والذين لديهم السمو الروحي حيث يقدم لهم من طعام العالم ويثير رغبة وشهوات الإنسان المؤمن حتى يأكل بشراهة، وبعدها لا يستطيع الحركة نحو السماء.

أخي:

أنت مدعو لتحلق في السماء، ونحو السماء، حتى تستقر فيها بصفة نهائية ودائمة. والعدو يريدك معه على الأرض، فيقدم لك مائدة مسمومة بالشهوات الجنسية وحتى يثقل جسدك، وتفقدك شفافية الروح وبالتالي لا تقوى على الارتفاع. لا تترك نفسك تذهب ضحية الطعام المسموم.

اقرأ معي ما كتبه القديس يوحنا كليماكوس عن أبناء وبنات شهوة الطعام لحد الشراهة.

"لما أوجعنا البطن بالتوبيخ قالت كيف تهربون مني وأنا في الطبيعة مربوطة وأولادي كثيرون : وأما بكري فهو الزنا، وثانية قساوة القلب وثالثه النوم، ومع هؤلاء الأفكار الكثيرة الدنسة. وبناتي هي الكسل والمزاح والضحك وقلة الحس والسهو ونسيان الموت وحب الزينة"[2]

---

[1] سلم الدرجي، درجات الفضائل، للقديس يوحنا كليماكوسش، إعداد المرحوم حبيب جرجس، ص46، من الميمر الرابع عشر، في شهوة البطن سيدة الأوجاع.
[2] نفس المرجع السابق، ص47.

ثانياً: شهوة شرب الخمر يقرب أسباب الهوى البعيدة

الخمر علامة الفرح والسرور والبهجة، و يدخل في الكثير من صنع الأدوية. هذه هي حجج الذين يتجرعون الخمر. ويأخذون موقف المسيح من استخدامه الخمر وتقديمه على أساس أنه دمه في القداس الإلهي وتحويله الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل؛ هذان الموقفان كأنهما تصريحٌ رسميٌ لاحتساء الخمور المختلفة والمتنوعة. ليس لنا أن نخوض البحث في نصوص الكتاب المقدس وكأننا متخصصون ولكن لي أن أتحدث عن الخمر الذي يؤدي إلى حالة الثمالة، يعطي فرصة عظيمة للأهواء والشهوات لتسود على الإنسان، لأن حالة الثمالة تُحدث عملية غيبية لعقل الإنسان أو لوعيه. وتفقده اتزانه واعتداله وبالتالي تكون فرصة لخروج ما هو كامن داخل الإنسان في عقله الباطن من شهوات ورغبات محرمة، خاصة وأن الفكر مخدر والإرادة مرتخية والوعي في غيبوبة.

"الخمر مستهزئة.المسِكر عجاج ومن يترنح بهما فليس بحكيم" (أم 1:20)

الذين تجذبهم الخمر بمظهرها ومنظرها فليحذر لأنها مثل الأفعى مظهرها جميل ولكنها تلسع وتلدغ . وتنفث سمها في بدن فريستها، وتتركه بين حي وميت.

"للذين يدمنون الخمر الذين يدخلون في طلب الشراب الممزوج لا تنظر إلى الخمر إذا احمرت حين تظهر حبابها في الكأس وساغت مرقرقة في الآخر تلسع كالحية وتلدغ كالافعوان" (أم23:3-32)

ربما كان هناك بالفعل من يقدم الخمر في لحظات الفرح وللتعبير عن الفرح والسعادة، ولكن ليس بالإفراط فيها إلى درجة الثمالة. لأن الإفراط في الخمر أهلكت كثيرين أقوياء. وتركت مرارة في حلق آخرين، وأثارت غضب آخرين.

"لا تكن ذا بأس في أمر الخمر فإن الخمر أهلكت الكثيرين. الأتون يمتحن صلابة الفولاذ والخمر تمتحن القلوب في قتال بين متعنترين الخمر حياة الإنسان إذا اعتدلت في شربها أو عيش لمن ليس له خمر. فهي خلقت لابتهاج الناس. الخمر ابتهاج القلب وسرور النفس لمن شرب منها في وقتها ما كفى الإفراط من شرب الخمر مرارة للنفس ويجلب التحري والزلة. السكر يهيج غضب الغبي حتى العثار ويقلل قوته ويسبب الجراح" (أم31:25-30)

لقد استخدم الحكيم كلمات قوية عن حالة السكر والثمالة مثل الترنح الموجودة في (أم1:20). وهي تعبر عن حالة إنسان غير ثابت ومهزوز ولا يقوى على الوقوف على قدميه. ولذا نجد أن الإنسان الذي يعيش وفق أهوائه وشهواته، غير واضح غير ثابت، متردد، ويترنح تارة شمالاً وتارة يميناً.

شرب الخمر لا يؤثر فقط نفسياً أو صحياً، بل ومادياً أيضاً.

"لا تكن بين المدمنين للخمر والملتهمين اللحم فان المدمن والملتهم يفتقران والنوم يلبس الثياب البالية". (أم 23:20-21)

يحذر الحكيم هنا الذين يفرطون في تعاطي المكيفات والخمور من الإفلاس المادي والفقر والجوع.

قصة توضيحية:

أراد شخص ما أن يدفع آخر ليقوم بعملية سرقة من دار عمه، مستغلاً في ذلك عوز واحتياج هذا الشخص المدفوع لارتكاب الجريمة. ولأنه ظن أنه اختار الرجل المناسب للعمل المناسب. ولكن هذا الشخص رفض القيام بالمهمة متمسكاً بالشرف والأمانة مع الفقر. ولم يستسلم هذا الشخص للرفض، فدعاه بعد فترة من الزمان، لقضاء سهرة لطيفة مع بعض الأصدقاء، وترجاه بعدم الرفض وبالفعل قبل الدعوة وحضر السهرة معهم، والتي قدمت فيها الخمر مشروباً، وأخذ الجميع في الشراب، ولكن حاول الرجل الفقير أن يرفض المشاركة في الشراب. وكانت حجج المضيف الكريم والأصدقاء أقوى من رفضه. بحجة أن رفضه هذا يفسد السهرة، وجلسة الأحباء. وأخيراً قبل أن يأخذ كأس واحد على سبيل المجاملة وجبر الخواطر وهكذا الكأس الواحد جرا وراءه الكأس الآخر ... ووصل به الأمر إلى الثملة وأخذه معه صديقه لدار عمه ليقوم بمهمة السرقة. وهناك قتل وهو لا يدري ماذا يفعل وسرق... لقد رفض في البداية السرقة فقط وهو الآن قاتل والسر في كأس الخمر.

ثالثاً: تأثير البيئة المحيطة بالإنسان

مفهوم البيئة هو البيت، المدرسة، الشارع، الوراثة. هذه البيئة لها تأثير خطير على تهذيب ميول وأهواء الإنسان . والتي تكون عشوائية جداً في مرحلة الطفولة وغاشمة وفي احتياج للتهذيب والتوجيه. والتدليل للطفل في محيط الأسرة يعطي انطلاقة للأهواء والميول.

قصة توضيحية لذلك[3]:جاء في جريدة رسمية الآتي:

ولد وحيد بين إخوته البنات. قد جاء بعد فترة انتظار من قبل والديه. وكانت فرحة الأب بابنه لا توصف، وكأنه لم ينجب قبله أحد. وأخذ يهتم بالولد اهتماماً غير عادي لدرجة أن الطفل الذي لم يتجاوز العامين من عمره، أدرك حب والده الجنوني. فكان الطفل يستغل هذا الحب في طلباته المصحوبة بالبكاء وفي أوقات غير عادية بعد منتصف الليل، أو الفجر، وكان والده يترك المنزل في هذه الساعة المتأخرة من الليل أو الأولى من الصباح الجديد. واستغل هذا الولد حب والده في مضايقة والدته وإخوته البنات بالسب والضرب لدرجة أن كل الجيران يسمعون السب والشتائم، والصراخ. كبر الولد وصار في الجامعة، وصار والده على المعاش وأحوال الأسرة الاقتصادية لا تسمح بمتطلبات هذا الشاب، ولا تكفي حتى مصاريف البيت العادية، ولكن هذا الشاب الذي لا يفكر إلا في ذاته وطلباته هو ولا يهمه سائر أفراد العائلة. لم يفكر مثلاً في إخوته البنات، وفي كيفية تجهيزهن لأنهن مقبلات على الزواج. ولم يفكر في حال الأم التي تحاول أن تدبر شئون المنزل الاقتصادية بأقل ما يجب. آخر طلب كان له على حسب رواية الأم كان سيارة لأنه لا يرغب في الذهاب للجامعة على قدميه أو بالمواصلات العادية كسائر البشر.

وأخيراً تشكو الأم، ولا تعرف أسلوب أو طريقة للتفاهم مع هذا الابن. هل تذهب للبوليس، ا أم لأصدقاء، الأقارب، المعارف، لرجال الدين...

أليس هذا الشاب نموذجا للتربية على الأهواء؟

نموذج آخر لتأثير البيئة تحدثت الجرائد والمجلات القومية عن الشاب طارق، الذي احترف البلطجة، وأخذ يفرض على الناس إتاوات، ويثير الرعب في قلوب الناس ويهين من يشاء بالأسلوب الذي يتراءى له. وقد أطلق عليه البعض شمشون مصر الجديدة لضخامته ولكثرة الأسلحة المدجج بها. وهذا

[3] عبد الوهاب مطاوع، بريد الأهرام، تاريخ 12/6/1992.

الشمشون تصدى لرجال البوليس بإطلاقه النار عليهم. وانتهى الموقف بسقوطه قتيلاً ووالده لواء شرطة على المعاش. وجاءت التحليلات الاجتماعية والنفسية على صفحات الجرائد وخاصة في جريدة الحوادث. ونختار واحداً فقط من المحللين[4]

"بداية لابد أن نصحح المسميات ... فلفظ (الفتوة) منذ القديم يطلق على الرجل الذي يحمي الضعفاء فهو قائد شعبي ينصر المظلومين ... والتسمية السليمة لتسمية ابن الذوات الفتوة هي "**الجامح**"[5]

هذه المشكلة ليست سهلة، بل على درجة من الصعوبة كبيرة، واعتقد أن المجتمع المصري سيعاني منها كثيراً في المستقبل ... والمشكلة تبدأ بالإشباع الزائد لدى بعض طبقات المجتمع المصري، حيث لا يرفضون لأبنائهم طلباً، وهنا يعتاد الابن على إشباع احتياجاته دون انتظار أو تأجيل وبشكل كامل، فلا يتعلم الصبر واحتمال المكاره والمشقة ولا يستطيع الصمود في وجه الضغوط والصعوبات. ويتصرف إما بشكل جامح يسعى من أقرب الطرق للوصول إلى مبتغاه، دون اهتمام بالقواعد والأعراف والقوانين، وهذا النمط هو أكثر الأنماط سقوطاً في شر الإدمان، إذ لا يصمد أمام اللذة العاجلة فيسعى إليها من أقرب طريق ولو كان ضاراً به وبصحته وبالآخرين.

هذه الأحداث وغيرها تعلمنا أن لا ندلل أطفالنا. ولا نظن أنه من المحبة لهم تحقيق كل رغباتهم وإرضائهم حسب هواهم . ولا ننهزم أمام دموعهم وتوسلاتهم للوصول إلى تحقيق مآربهم.

المسئولية والمحبة تحتم على البيئة الاعتدال والاتزان في تلبية طلبات ورغبات الصغار والأطفال. وكذلك تهذيبهم للنضوج.

رابعاً : الحواس وقوة التأثير على الخيال والعاطفة

الهوى والميل يحولان النسبي إلى مطلق. والهدف هو أن تصبح الأهواء والميول بمثابة الإله المعبود، والأهواء تجد فرصتها في الإنسان الأكثر عاطفية، لأن من طبيعة الشخص العاطفي أن لديه القدرة على أن يعيش في الخيال وأحلام اليقظة أكثر من غيره. فتتخذ الأهواء والميول من ذاتها موضوعاً للخيال، وتعزز موقفها بالتصورات الذهنية، وبما يأتي عليها من صور حسية ومادية عن طريق الحواس. وبمعنى آخر نجد أن هناك خضوعاً للحواس لما يحدث في هذا الذهن.

1- **النظر**

العين تعتبر هي مرآة العقل. أو هي الكاميرا التي تنقل الصور الحسية والمادية إلى العقل، كما أنها تنقل المؤثرات العقلية إليها. ونجد في العظة على الجبل "**كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه**". (مت5:29).

نظرة العين، تدخل بمقدار وقاحة القلب. وبمقدار وقاحة النظرة، وقاحة العين. فالنظرة النقية لا تترك في قلب صاحبها إلا النقاء، والنظرة الشهوانية تقود صاحبها إلى الشهوة، والقديس أغسطينوس يعلق على خطيئة النجاسة في أربع كلمات:

"**نظرة، فصورة، فاشتهاء، فسقوط**". ويعني هذا الكلام هو أن ننقي عيوننا ونجعل من البراءة في نظرنا. لأن النظر كما قال القديس أغسطينوس هو أول حلقات السقوط.

قيل عن حواء :

"**رأت الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر**" (تك 3:6)

وقيل عن داود الملك :

"**وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً** " (2 صم 11:2)

العالم القديم كله هلك وفسد بسبب العين.

"**إن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا**" (تك 6:2)

شهوة العين هي السبب في خطيئة عخان بن كرمي.

"**رأيت في الغنيمة رداء شنعاريا نفيساً ومائتي شاقل ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلاً فاشتهيتها وأخذتها**". (يش 7:21)

ويتحدث بطرس الرسول عن أصحاب الطبيعة الجسدية كالحيوانات، ويتحدث عن عيونهم :

"**لهم عيون مملوءة فسقاً لا تكف عن الخطية خادعون النفوس غير الثابتة. لهم قلب متدرب في الطمع. أولاد اللعنة**". (2بط 2:12-14)

لقد قطع أيوب البار عهداً مع عينيه حتى لا ينظر أو يشتهي عذراء.

"**عهداً قطعت لعيني فكيف أتطلع إلى عذراء**". (أي 31:1)

"**إن أعثرتك عينك فاقلعها**" (مز 47:9)

وقد نستجلي آراء كثيرة من وراء هذه الآية.

<u>أولاً المعنى الحرفي :</u>

ويعني أن هناك هدفاً أمام الإنسان، يستحق أن يضحي من أجله. ففي الناحية الجسدية قد يرضي إنسان أن يضحي بطرف من أطرافه – يده أو رجله – لينقذ حياته من موت أكيد لو بقي ذلك الطرف. هذا الحق له وجود أيضاً من الناحية الروحية.

<u>ثانياً، المعنى التقليدي :</u>

وهو أن هناك أحاديثَ يهوديةً عن صلة الأعضاء بالخطيئة مثل : "**العين والقلب سمساران للخطية**" أو "**العين والقلب خادمان للخطية**".

---

[4] مجلة الحوادث الخميس 18/6/1992، ص2،3، تحدث الدكتور سيد القط، رئيس مركز الدراسات النفسية بوزارة الصحة، ص8-9.

[5] الجانح: يعني لا ضوابط ولا تحكم في النفس، بل متروكة للأهواء والرغبات ويصبح كالحصان بلا لجام.

أو **"الشهوات تملأ الشخص الذي يرى فقط"**.

أو **"ويل لمن يتبع عينيه لأن العينين زانيتان"**.

وهناك غرائز في الإنسان وبعض الأعضاء التي تخدم الخطية. ولكن مع ذلك ينبغي ألا نأخذ قول يسوع حرفياً، بل أن نفهمه بهذا المعنى: أن هناك أهدافاً في الحياة يستحق كل تضحية مهما غلت.

ثالثاً، المعنى المجازي :

لقد اعتقد المعلم أوريجانوس أن كلام المسيح كلام مجازي وهو يعني به الكنيسة وليس الفرد، بمعنى أن الكنيسة تقطع العضو الفاسد بدلاً من أن يفسد كل الأعضاء.

2- **الأذن**

أحياناً تكون الأذن هي المنفذ التي تتسرب إليه الأشياء التي تساعد على تسلط الأهواء والميول، وهذه الأشياء التي يستمع إليها الشخص: الفكاهة الماجنة، والقصص الفاسدة، والأغاني الهابطة والعابثة المهيجة، والأصوات المغرية، والأحاديث المعثرة. فيكون ذلك كله محرضاً للسقوط في الخطيئة. فلنصن آذاننا لأن الآذان أحد مداخل مدينة النفس في الإنسان، وهي بطبيعتها تكون مكشوفة، فلا تحميها حواجز كما تحمي الحواجب العيون. فتضطر الأذن أن تسمع ما تحب وما لا تحب، ولكن حاجبها القوي إرادة الإنسان.

السيد المسيح تحدث عن العيون والآذان التي هي ملك الرب.

"وأما أنتم فطوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع" (مت 16:13)

وتحدث السيد المسيح عن العيون والآذان التي لا ترى ولا تسمع.
"تسمعون سماعاً ولا تفهمون، وتنظرون نظراً ولا تبصرون. فقط غلظ قلب هذا الشعب وأصموا آذانهم وأغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجحوا. أفأشفيهم " (مت 13:14-15).

يتحدث السيد المسيح عن عيون وآذان تسلطت عليها الأهواء والميول، فلا تسمع ولا ترى غيرهما. وبالتالي ترفض العيون أن ترى ما جاء المسيح من حب وخير وجمال وترفض الآذان أن تسمع صوت المسيح الحلو والجذاب.

3- **الفكر**

القديس أغسطينوس يضع الفكر في المرتبة الثانية في السلسلة التي تنتهي بالسقوط في الخطيئة، وجهة نظر القديس أغسطينوس أن ما من إنسان سقط إلا إذا كان أولاً فكر في السقوط. فالخطيئة عمل يسبقه التفكير.

إن الأفكار الشريرة والدنسة تفعل في النفس فعل الجراثيم الفتاكة في الجسم.

القديس أغسطينوس يقول:

"الفكر الشرير يمر أمام بابك، أولاً كعابر سبيل، ثم يدخل كضيف، ثم يعرض سلطته كسيد".

قال أحد علماء النفس :

"إننا ننسج مستقبلنا بأيدينا، فكل فكر في الفضيلة أو الرذيلة يترك وراءه أثراً مهماً كبيراً كان أو صغيراً، لا شيء مما تفعله يمكن أن يُمحى".

فأقل مشهد نجس يمر على أبصارنا، يعرِّض أفكارنا للاشتغال به، وكذلك المواضيع الفاسدة التي نسمعها، ونقرأها تُعطي فرصة للأفكار النجسة أن تتسلط علينا. وكثيراً ما تنشأ الأفكار النجسة فينا من لا شيء، إلاّ لأن قلب الإنسان به حجرة مظلمة تكمن فيها بعض النجاسة.

القديس دوروثيوس يقول :

"بخصوص شهواتنا فإننا نستطيع أن نقلعها بسهولة في البدء حين نرغب في ذلك، أما إذ تركناها وأهملنا في نزعها فإنها ستقوى وتتشدد. وكلما تتقوى كلما تحتاج إلى جهد أكبر لكي نقلعها، وإذا نمت ونضجت هذه الشهوة فإننا لن نستطيع أن نقلعها من ذواتنا ما لم تلحقنا معونة القديسين وشفاعتهم عنا أمام الله".

إذا تركنا الفرصة أمام الصور الخيالية العارية من الحشمة أو الأفكار المدنسة العارية من الحشمة. تتردد على العقل ذهاباً وإياباً حتى يفتح لها العقل بابه ويستقبلها. وهنا تجلس وتمكث في داخله وتتمكن منه، فيصعُب التخلص منها إلا بالإرادة والعزيمة القوية والنعمة الإلهية. ويستطيع الإنسان أن يغلق باب عقله أمام هذه الأفكار والتصورات، فيتجنب ما تسببه له من قلق وألم .

والنصيحة هي : لا تدع العقل يتلذذ بالخواطر أو الصور غير المحتشمة، فلا نترك ذواتنا لها، لئلا تعبث بنا كما يحلو لها، بل علينا أن نقاومها بقوة.

خامساً : ضعف الإرادة والعزيمة.

الإرادة القوية تقي صاحبها من الانقياد الأعمى للشهوات، وتمنع بذور الهوى من الانتشار داخل النفس. متى تسلطت الأهواء على الذهن فهي لا تقبل أن، تكون مجرد فكرة، فهي تثير الميول والرغبات داخل كيان الإنسان وبهذا الشكل تضمن وجود الجسد، أو الذهن، والعاطفة في جوارها وفي صفها. وتستعين الأهواء بكل هؤلاء الأصناف قوة المقاومة للإرادة.حيث يصبح هناك شبه اتفاق بين العاطفة والعقل مع الأهواء والميول الشهوانية ضد الإرادة، فالأهواء تقنع العقل بضرورة الاستسلام، وعدم المقاومة وذلك بطريقة سياسة التحايل والخديعة. حيث إن العقل يقدم الهوى والشهوة بصورة جميلة جداً، ويخفي الجزء القبيح فيها.

"المياه المسروقة حلوة وخبز الخفية لذيذ". (أم9:17)

"ولا يعلم أن الأخيلة هناك وأن في أعماق الهاوية ضيوفها". (أم 9:18)

"لأن شفتي المرأة الأجنبية تقطران عسلاً وحنكها أنعم من الزيت لكن عاقبتها مرة كالأفسنتين حادة كسيف ذي حدين قدماها تنحدران إلى الموت.خطواتها تتمسك بالهاوية". (أم4:3-5)

الصورة التي يقنع بها العقل الإرادة هي شفتي المرأة التي يوصفها وكأنها الشهد وأنعم من الزيت، علامة الرقة والنعومة، ترق للأهواء والشهوات. ولكن العقل يخفي الجزء الآخر من الحقيقة، "ليخدع الإرادة" أن بعد الشهد يتحول الفم والجوف إلى الأفسنتين وهو نبات شديد المرارة. وتمزق في الأحشاء كالسيف. والأصعب من كل هذا هو الموت والهاوية.

"الشهوة إذا حبلت ولدت خطيئة. والخطيئة تنتج موتاً".

"لأنها طرحت كثيرين جرحى وكل قتلاها أقوياء". (أم 26:17)

وباستسلام الإرادة وخضوعها للشهوة وفعلها للخطيئة، وتكرار الخطيئة تضعف الإرادة، ويسلبها حريتها.

"من يفعل الخطيئة هو عبد للخطيئة". (يو 34:8)

إن الأهواء والشهوات تقدم ذاتها للإنسان بأحدث أساليب الفن والذوق والجمال، وبثوب براق. حتى تخفي صورتها الحقيقية، وتجد قبولاً سريعاً من الإنسان. فهي تخدع البصر، والأذن وتعبث بالعاطفة، والعقل وتستخدمهما في إضعاف الإرادة. وتعطي للجسد سلطاناً يفوق سلطان العقل والإرادة معاً.

سادساً: الكسل والتراخي

أصعب اللحظات التي تمر على الإنسان. هي لحظات الكسل والتراخي. حيث إن الجسم يكون خاملاً ليست لديه القدرة على الحركة والنشاط. وحيث إن الفكر أيضاً يكون خاملاً، ليس لديه ما يشغله أو يستقطبه. فلا تجد الأهواء والشهوات صعوبة في الوصول إلى هذا الإنسان، لتكون موضوعاً للفكر، وهدفاً للإرادة، وحركة للجسد والكتاب يذكر لنا عن داود النبي :

"وكان عند تمام السنة في وقت خروج الملوك أن داود أرسل يوآب وعبيده معه وجميع إسرائيل فأخرجوا بني عمون وحاصروا ربة. وأما داود فأقام في أورشليم. وكان في وقت المساء أن داود قام من السرير وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جداً". (2صم 11:1-2)

الشعب يحارب ويقاتل والملك في حالة راحة، وعدم عمل. وكان يتمشى فوق السطح حينما اصطاده عدو الخير، بإثارة شهوة الزنا في داخله.

حينما يعيش عاطلاً فاشلاً يقدم عدو الخير، له فرصة عمل مناسبة تخدم أهدافه ومصالحه.

الكسل والتراخي يجعلان الإنسان عرضة للملل والسأم. والإنسان لا يحتمل هذا الشعور في داخله، فيقدم على أفعال وأعمال الغرض منها هو التخلص من الشعور بالملل. ولا تجد الأهواء والشهوات فرصة أعظم من هذه لتملأ على الإنسان حياته، وليتغلب على الشعور بالملل والسأم.

لقد شكى الأنبا انطونيوس لله قائلاً : يارب أريد أن أعيش لك وأصلي كل الوقت، ولكن الفكر والمحاربات لا تتركني، فأرسل الله له ملاكاً بالزي الرهباني وسلمه النظام الذي يسير عليه : قليل من العمل، قليل من القراءة، صلاة دائمة. وهكذا عاش الأنبا أنطونيوس حياته على هذا النظام داخل مغارته لأكثر من عشرين عاماً.

البطالة هي في حد ذاتها خطأ وسيئة للإنسان. فهي تحطم الآمال والطموح، وتعطي الإحساس بالعجز والفشل وخيبة الأمل، وتأخذ الإنسان في بلوعة اليأس، ويكفي الشعور بالإحباط لدى هذا الإنسان.

البطالة تدفع الإنسان إلى الشعور باللا معنى واللا قيمة" ومن منطلق كل هذه المشاعر والأحاسيس يتصرف الإنسان ومن هنا نجد المثل البلدي الشائع صداه :

الأيدي البطالة نجسة" إذ نجد أن لا شيء لدى هذا الإنسان يساوي شيئاً. الشر والخير، المبادئ والقيم، اللا مبادئ واللا قيم ، الحب والكراهية. كل شيء لديه سيان ويعتبر كل هذا شعور طبيعي، وتصرفات طبيعية لإنسان في حالة استسلام لهذا الوضع. وربما أحد يتساءل عن وجود بعض المصطلحات مثل الكسل والتراخي وأيضاً البطالة. هل هناك فرقا بين هذه المصطلحات؟

الكسل والتراخي: يكون مصدرهما الإنسان ذاته، إذ لا يريد أن يكلف ذاته مشقة البحث والعناء، لأجل الحصول على العمل أو التفكير في عمل مناسب له. فهو الذي يريد أن يكون كسولاً ومتراخياً.

البطالة : قد يكون مصدرها المجتمع أو الآخرين بعدم إتاحة الفرصة أمام الإنسان. أو لعدم وجود إمكانية عمل (الكساد الاقتصادي).

ويؤثر الكسل والتراخي أو حالة البطالة، في حياة الإنسان ويخضعانه للأهواء والشهوات كهروب من الشعور بالملل والسأم كحالة الكسل والتراخي. أو للشعور للإحباط والفشل واللا معنى كحالة البطالة.

سابعاً : الفراغ بأنواعه

الكسل والتراخي والبطالة، حالات تدفع الإنسان إلى وحش كاسر اسمه **"الفراغ"**، السلبية لا تأتي إلا بالسلبية. والفراغ هي حالة سلبية بالنسبة للإنسان، وفي هذه الحالة يكون عرضة لعبث الأهواء والشهوات. حالة الفراغ هو الوقت المناسب لخروج الأفاعي من مخابئها. وأقصد بها النزوات والرغبات المكبوتة في اللاشعور والعقل الباطن، والتي تنطلق من الحجرات المظلمة داخل النفس .

الحالة سلبية والذهن سلبي والعقل لا يفكر جيداً والمشاعر ليست حميدة لما تحتويه من مرارة وإحباط، فلا مانع للأهواء والشهوات من الخروج والقفز للعقل والذهن. لا مانع من دور الشهامة والبطولة للأهواء والشهوات. فهي تقدم نفسها على أساس أنها الحل لما يعانيه الإنسان من مشاكله وتساعده على التخلص من المشاعر والأحاسيس السابق ذكرها. وللأسف الشديد أن شاب هذا الجيل وهذا العصر هو فريسة لأنواع شتى للفراغ. فلم تعد المشكلة هي مشكلة فراغ زمني أو وقتي أو فراغ عمل، بل يوجد فراغ روحي حيث لا شركة حقيقية مع الله. وفراغ فكري وذهني حيث يفتقد فيه الإنسان للحكمة والتمييز والاتزان. وفراغ عاطفي، حيث لا يوجد تعاطف إنساني وحب الناس لبعض. والكتاب المقدس يكشف لنا عن معنى الفراغ بأنه السلبية في حياة الإنسان، وعدم الإيجابية.

"متى خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز في أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة. وإذ لا يجد يقول أرجع إلى بيتي الذي خرجت منه فيأتي ويجده مكنوساً مزيناً. ثم يذهب ويأخذ سبعة أرواح أخر أشر منه فتدخل وتسكن هناك. فتصير أواخر ذلك الإنسان أشر من أوائله". (لو11:24-26).

هذا النص يحكي لنا قصة النفس التي طُرد منها الروح النجس، لكن الروح النجس عزم على الرجوع إليها مرة أخرى لأنه وجد ها مكنوسة مزينة ولكنها فارغة. ولم يأت بمفرده بل أحضر معه سبعة أرواح أشر منه وسكنوا في هذه النفس التي صارت أخرتها أشر من الأول.

فليس كافياً أن تطرد الأفكار الشريرة والعادات الباطلة والطرق القديمة، لأن هذا يتركها شاغرة خاوية، والمعروف أن النفس الفارغة تهلك. فيجب أن يمتلأ الإنسان بشيء، وحبذا أن يكون هذا الشيء هو الحب والخير، لذا ليس كافياً أن تطرد الشيطان بل ينبغي أن تمتلئ بالصلاح.

النتائج والآثار المترتبة عن الأهواء والميول

كل فعل له نتائج وآثار وبصمات يتركها ونستطيع أن نلاحظها أو، نلمسها ونحسها، في حياة الإنسان الشخصية، داخل ذاته. وبالتالي تؤثر على حياة الشخص الاجتماعية والروحية.

1- **الآثار والأضرار الجسدية والنفسية.**

الذين ينقادون وراء الأهواء ويدنسون ثوبهم يصابون بالعديد من الأمراض الجسدية والعقلية. ومن الأمراض مثلاً الزهري، السيلان، والإيدز. والأمراض العقلية كالجنون، والفصام، والصرع، وعذاب الضمير، والشعور بالإثم. فالشهوات الدنيئة، والأهواء الخسيسة، تشوه الصورة الخارجية، والداخلية للإنسان.

تُحكى قصة قديمة جداً، وهي قصة أحد المصورين البارعين أراد أن يصور السيد المسيح مع تلاميذه الاثني عشر، ولما كان لكل مصور نموذج ينقل منه، قصد ذلك المصور أن يبحث عن أجمل شاب في بلاده ليكون نموذجاً ينقل منه أو عنه، وبعد أن تعب كثيراً في التفتيش، اهتدى أخيراً إلى شاب اسمه "وليم فيليب" فأخذ صورته لينقل عنه.

وبعد أن مضت عشر سنوات كان المصور قد انتهى من إعداد صورة المسيح مع تلاميذه إلا يهوذا الاسخريوطي، فقصد المصور أن يطوف البلاد مفتشاً عن إنسان قبيح الصورة تتلاءم صورته مع صورة يهوذا الخائن.

ذهب إلى محال المجاذيب فلم يفز بأمنيته.. قصد ملاجئ الأيتام فلم يجد ضالته، ثم قصد أخيراً محال الفجور والدنس فوجد إنساناً مطروحاً على الأرض، شعره مشوش ومضطرب، وجهه أصفر كالح، تعلوه طبقة من الأوساخ الكريهة، يسيل من أنفه دم ترابي اللون، ومن فمه لعاب مذبل، وعيناه غائرتان تكاد تعجزان عن الحركة، توقف المصور أمام تلك الهيئة البشعة، وتنهد تنهداً بالألم والسرور إذ قال : هنا وجدت ضالتي، هذا يمثل الخاطئ في بؤسه ويأسه: "قال هذا وانحنى نحو ذلك الإنسان وقال هل تسمح أن تقول لي عن اسمك؟ فأحدق ذلك الرجل نظره في وجه المصور وكأنه أعاد إلى ذاكرته شبحاً بعيداً، فقال بصوت تخنقه الغصات والدموع تسيل من عينيه" لماذا تسأل عن اسمي التعيس ؟" إني أذكرك أو أذكر شخصاً يشبهك سألني منذ عشرة أعوام عن اسمي فأجبته اسمي "وليم فيليب" .... هذا هو اسمي يا سيدي !! فارتعش إذ ذاك المصور وخانه الصبر والتجلد فارتمى بجانب ذلك الرجل يبكيه ويرثيه ... لأن المصوراتي اكتشف أنه نفس الشخص الذي صوره منذ عشر سنوات على أنه المسيح كلي الطهر، والعفاف، والوداعة، والنقاوة، والقداسة. والآن يصوره على أنه يهوذا الاسخريوطي حليف الشيطان، بالغباء والدناءة، والنجاسة، والفجور.

هل أدركت الفرق بين الصورتين وبين الشخصين؟؟

2- **الآثار والأضرار الأدبية والاجتماعية.**

الإنسان الذي يتبع أهواءه وشهواته، ويخضع لمزاجه وميوله المتقلبة، ويفقد كرامته وسمعته. ولأن الأهواء تُفقد الإنسان آماله وطموحاته الأدبية السامية من ناحية، وتلوذ به إلى الدناءة والخسة من ناحية أخرى، وبالتالي يفقد احترام وتقدير الآخرين له، كيف يحترمون شخصية ما هي نفسها لا تحترم ذاتها.

قصة توضيحية :

كان موكب الإسكندر الأكبر يمر في أحد الشوارع الرئيسية بالمدينة. فوقف كل الناس لتحيته ما عدا شخصاً واحد. ظل جالساً، بجانب الطريق غير مكترث. بموكب الإسكندر. ولما علم الإسكندر بذلك استدعاه إلى قصره ليستجوبه.

قال له الإسكندر : كيف لا ترحب بالإمبراطور الأعظم؟

أجابه الناسك **"ديوجنيس"** كيف أرحب بمن هو عبد لعبدتي؟

غضب الإسكندر جداً وقال له : كيف تتجاسر وتقول هذا...

أجابه الناسك بهدوء : أيها الإمبراطور أنت عبد لإحدى شهواتك ... شهوة جمع المال. أما أنا فقد تحررت من سلطانها، لهذا أصبحت عبدتي ... لكن للأسف أيها الإمبراطور أنت عبد لعبدتي.

الإنسان الذي يعيش لأهوائه وشهواته غير مقبول لدى الإنسان الآخر أو الآخرين لأن الهوى يجعل الإنسان أنانياً يدور في فلك واحد أو دائرة واحدة هي الذات. تصبح ذاته أفكاره هي المركز والمحور والهدف في الآن ذاته. وشخصية بهذا الشكل لا تشجع الآخرين للتعامل معها.

"كتبت إليكم في الرسالة أن لا تخلطوا الزناة. وليس مطلقاً زناة هذا العالم أو الطماعين أو الخطافين أو عبدة الأوثان وإلا فيلزمكم أن تخرجوا من العالم. وأما الآن فكتبت إليكم إن كان أحد مدعو أخاً زانياً أو طماعاً أو عابد وثن أو شتاماً أو سكيراً أو خاطفاً أن لا تخالطوا ولا تواكلوا مثل هذا... فاعزلوا الخبيث من وسطكم". (1كو 5:9-13)

3- **الآثار والأضرار الروحية.**

تسليم الحياة للمسيح، بما فيها الأهواء والميول تصبح نعمة وبركة. وإذا ابتعدت حياتنا وأهواؤنا وميولنا بعيداً عن الله لصارت لنا نقمة ولعنة.

حينما يقوم الإنسان بتسليم أهوائه وميوله لله، يتحول كل ما بداخله إلى طاقة قوية دافعة لعمل واحد واتجاه واحد تتسامى به النفس إلى فوق. وقد يحدث العكس، إذا ترك الإنسان نفسه للأهواء والميول والشهوات، نجده يفقد التركيز، ويتشتت، ويهدر طاقته وقوته.

أولاً : لا شبع ولا ارتواء.

الذي يترك ذاته للأهواء والشهوات تتسلط عليه، وتأخذ صورة المطلق في حياته.

هذه الأهواء والشهوات قادرة على إيهامه أو توهمه بأنها قادرة على إشباعه وإرواء ظمأه وبأنه لن يجوع، ولن يعطش. ولكن الحقيقة نكتشفها على صفحات الكتاب المقدس.

"تركوني أنا ينبوع المياه الحية، واحتفروا لهم آباراً مشققة لا تمسك الماء" (أر 13:2)

فالآية تنقسم إلى شقين .

الأول هو ترك الينبوع الحي والحقيقي، والثاني هو الإقدام على حفر آبار ليس فيها مياه.

وهذه الآبار هي الميول والأهواء التي يسير وراءها الإنسان، ولكن للأسف تكذب عليه وتوهمه وتخدعه كالسراب.

هذه الميول والأهواء تدفع بالإنسان إلى حالة القلق وعدم الرضى. ويزداد الشعور بالقلق والتوتر وعدم الرضى، كلما أقبل عليها.

"زرعتم كثيراً ودخّلتُم قليلاً. تأكلون وليس إلى الشبع. وتشربون ولا تروون. تكتسون ولا تدفأون. والآخذ أجرة يأخذ أجرة لكيس منقوب". (حجي 6:1)

"ويكون كما يحلم الجائع أنه يأكل ثم يستيقظ وإذا نفسه فارغة. وكما يحلم العطشان أنه يشرب وإذا هو رازح ونفسه مشتهية "ظامئة". (أش 8:29)

ومعنى هذه الآية هي أن شهية الإنسان تظل خاوية، ويرهق ذاته ويتعب لأجل الإشباع ولكن دون جدوى. فهو كالإنسان المحموم الذي لا تتحسن حالته إلا إذا تركته الحمى. ولكن مثل هذا الإنسان المحموم بالأهواء والشهوات، يزداد ظمأ لحظة بعد لحظة .

"فرح الفاجر إلى لحظة". (أي 5:20 ب)

"كالحلم يطير فلا يوجد ويطرد كطيف الليل". (أي 8:20)

"فخبزه في أمعاءه يتحول إلى مرارة أصلال في بطنه". (أي 14:20)

"لأنه لم يعرف في بطنه قناعة لا ينجو بمشتاه". (أي 20:20)

"ليست من آكلة بقية لأجل ذلك لا يدوم خيره. مع ملأ رغده يتضايق. تأتي عليه يد كل شقي. يكون عندما يملأ بطنه أن الله يرسل عليه حمو غضبه ويمطره عليه عند طعامه". (أي20:21-23)

المعنى الإجمالي لهذه الآيات أن الإنسان بعد أن يُشبع ميوله، يظل رازحاً تحت قيودها وحملها الثقيل، إذ تنمو شهيته فتقع عليه يد كل بلية. فالأهواء والشهوات تترك النفس جريحة، وتظل جريحة وغير مستقرة ومضطربة بسببها. وتشبه المياه التي تحركها الرياح فتدخل عليها الاضطرابات، دون أن تستقر في مكان ثابت أو في شيء واحد.

"قلب الشرير مثل البحر المضطرب *(الهايج)* ". (أش 20:57)

"في شهوة نفسها تستنشق الريح". (أر 24:2)

"احفظي رجلك من الحفا وحلقك من الظمأ. فقلت باطلاً. لا. لأني قد أحببت الغرباء ووراءهم أذهب". (أر 52:2)

يحاول النبي أن يحذر النفس بأن تمنع إرادتها على إشباع شهوة لا تزيدها إلا عطشاً. ولكن للأسف النفس معجبة بالغربة والعطش فترفض النصيحة.

"يلتهم على اليمين فيجوع ويأكل على الشمال فلا يشبع يأكلون كل واحد لحم ذراعه". (أش 20:9)

أيها الإنسان لك أن تفكر قليلاً في الصورة التي أمامك والتي يصفها لك الأنبياء. ماذا يكون موقفك إزاء الأهواء والشهوات؟

ثانياً : عذاب وهوان

إن الشخص الخاضع للأهواء والشهوات، مثل الشخص المقيد بالحبال، لا يستطيع الحراك ولا يجد الراحة، ما لم يتخلص من قيوده. وكذلك يُصف عذاب الأهواء والشهوات بالإنسان الذي يتمدد عارياً فوق الأشواك والمسامير.

"اكتنفتني حبال الموت أصابتني شدائد الهاوية. كابدت ضيقاً وحزناً". (مز 3:116)

"كل الأمم أحاطوا بي. باسم الرب أُبيدهم. أحاطوا بي واكتنفوني. باسم الرب أبيدهم. أحاطوا بي مثل النحل. انطفأوا كنار الشوك". (مز 12:118)

"بقدر ما مجدت نفسها وتنعمت بقدر ذلك أعطوها عذاباً وحزناً". (رؤ 7:18)

عذاب النفس الخاضعة للشهوات والأهواء كعذاب النفس التي تسقط في الأسر على أيدى الأعداء. وهذا هو الذي حدث مع شمشون العظيم الذي اتبع أهواءه وميوله وشهواته.

"فأخذه الفلسطينيون وقلعوا عينيه ونزلوا به إلى غزة وأوثقوه بسلاسل نحاس وكان يطحن في بيت السجن". (قض 21:16)

شمشون القوي الذي كان من قبل حراً وقوياً وقاضياً في إسرائيل، لما وقع في يد الأعداء أسيراً، سلبوا قوته وقلعوا عينيه وربطوه في الطاحونة كالبهيمة. ثم عذبوه وأحزنوه كثيراً.

القوي الجبار يصبح مثل البقرة والحمار والسبب هو خضوعه لأهوائه وشهواته.

وأنت أيها الشاب من تكون؟ هل تظن نفسك أقوى من شمشون إزاء الأهواء والشهوات؟

ثالثاً :عمى وظلام روحي

يُغلق الهوى الإنسان على ذاته ويحده في تفكيره. فيجعل الهوى الإنسان لا يقنع ولا يناقش غيره، بل لا يقبل إلا ما يأتي من عقله. فهو كالأعمى والأصم لا يريد أن يسمع أو يرى غيره.

ويجعل الهوى الإنسان لا يتقيد بمبدأ التناقض رغم أنه يوجد تناقض بين ما في فكره وعواطفه، وبين ما ينادي به ويعمله.

"قد أدركتني آثامي فلم أستطع أن أبصر". (مز 13:139)

يعيش الإنسان بسبب الأهواء في حالة من العمى والظلام بمعنى فقدان الحكمة والتمييز والإدراك.

لم يكن داود أعمى البصر ورغم ذلك قال هذا المزمور السابق.

ومَن يغذي ميوله يكون كالسمكة التي يسحرها النور والطعم يعميها، فلا ترى الأخطار التي ينصبها لها الصيادون.

"وإذا كان أعمى يقود أعمى، فكلاهما يسقطان في حفرة". (مت 14:15)

الميول مثل المياه الزرقاء أو الجسم الغريب في العين، تشل حاسة البصر .

"وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يُميلُون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبع مائة من النساء السيدات وثلاث مائة من السراري فأمالت نساء قلبه. وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أُخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب أبيه داود". (1مل11:1-4)

كان سليمان شخصاً راسخاً في الحكمة، ولكنّ أهواءه وشهواته وميوله جعلته يقيم هياكل للأصنام ويتعبد لها إرضاءً لنسائه و لاهوائه.

يشوش الهوى نظام الميول الطبيعية داخل الإنسان. إذ تحدث عملية اختلال وفقدان التوازن. لأن الهوى يستقطب جميع الميول والرغبات والنزعات في الإنسان ويسخرها لصالحه. وقد أُطلق على الهوى اسماً هو **"الجنون"** لخروج صاحبه عن الاعتدال. وقد يؤدي بصاحبه إذا خاب أمله، فتظلم الدنيا في وجهه وتفقد قيمتها في عينيه، لأن المتيم لا يرى في الوجود إلا معشوقة أي الهوى.

يحدث الهوى عملية **"إحلال وتبديل"** في نظام قائم بنظام جديد، ويحدث هذا التغيير على كافة المستويات الجسدية والنفسية والروحية، ويكون تأثيره على النفس أشد منه على الجسد، لأنه يبدل الحساسية والعقل والإرادة، ويستقطب كل الأجهزة داخل الإنسان لصالحه ولصالح موضوع الهوى.

يعطي الهوى صورة غير حقيقية أو غير واقعية ويعطي إحساساً كاذباً مبني على الوهم وليس على الحقيقة.

دفع هذا الإحساس سليمان ليقول هذه الكلمات وهو الشخص المختبر للأهواء:

"فهذا أيضاً باطل وقبض الريح". (جا 16:4ب)

"باطل الأباطيل قال الجامعة الكل باطل". جا 8:12)

هذه الخبرة نسمعها من الذي قيل عنه.

"لم يرفض لقلبه طلباً ". (جا 10:2)

وقد جاء في اشعياء النبي عن الذين يسلكون بحسب الأهواء والشهوات.

"نتحسس الجدار كالعميان ونتلمس كمن لا عينين له، نعثر في الظهيرة كما في العتمة. في الضباب كالأموات". (أش 10:59)

من يتبع أهواءه وشهواته وميوله، وإن وجد حتى في نور الحقيقة فأنه لا يرى شيئاً كما لو كان في الظلام الحالك.

يذكر الكتاب المقدس يذكر لنا مثلاً عن ظلام الفكر، وتخدير الوعي بالأهواء والشهوات في قصة آمنون وثامار :

"فقالت له يا أخي لا تزلني لأنه لا يفُعل هكذا في إسرائيل، لا تعمل هذه القباحة. أما أنا فأين أذهب بعاري وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل. والآن كلم الملك لأنه لا يمنعني منك فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها. ثم أغضبها أمنون بغضبة شديدة جداً حتى أن البغضة كانت أشد من المحبة التي أحبها إياها. وقال لها أمنون قومي انطلقي" (2صم 13:12-15)

وفي هذه القصة نجد صراعاً حاداً بين الشهوة العمياء في آمنون، والحكمة والمنطق في ثامار. ولكن أمنون الأعمى بالشهوة لا يعطي أهمية لكلام الحكمة على لسان ثامار. فتحدثت الحكمة وقالت لآمنون أن الفعل الشهواني المقبل عليه فيه إذلال، وقباحة، وعار، وسفاهة. وتحاول الحكمة أن توضح له درجة القرابة له لعله لا يهينها ويرجع إلى وعيه، فتُذكّره بأنها أخته، ولا يجوز هذا بين الأخوة. وتارة توضح له موقفه أمام المجتمع والشعب، لأنه يكون كالسفهاء ومرة أخرى تحاول أن تفتح له باباً يتحاشى فيه كل هذا، بأن يطلبها رسمياً من الملك الذي لا يمانع إطلاقاً في الموافقة على طلبه. كل هذه المحاولات الجادة من الحكمة على لسان ثامار، ولكن للأسف حينما تسود الأهواء وتتملك الشهوات الإنسان لا يسمع إلا نداءات الجسد التي هي حماقة.

وما يظهر لنا أنها الشهوة التي دفعته لاغتصاب ثامار، وليس الحب، هي محاولات ثامار في إرجاعه عن غيه، بالمبررات الحكيمة. والفعل ذاته لا يعبر عن حب حقيقي وصادق لأن الحب يحترم ويحفظ ويصون الآخر والشهوة تترك في الإنسان مع اللذة بغضة وكراهية للطرف الآخر.

وهذا هو تفسير البغضة الشديدة من قبل آمنون نحو ثامار.

تأثير الهوى في الفعل تكون خاضعة للغريزة بمعنى أنها تتصف بالتهور، والاندفاع، والعشوائية. ولا يظهر للتفكير أو التأمل أو التنظيم العقلي دوراً في هذه الأفعال. ولا تقوى الإرادة على ضبط النفس فإنها لا تحتكم إلى العقل، ولا تتمالك عن فعل ما يرغب فيه القلب ليس للإرادة التي يبقيها الهوى قوة نهي أو رفض ولا قاعدة ثابتة واضحة لها. لأنها لا تحتكم إلى العقل، ولا تتمالك عن فعل ما يرغب فيه القلب، فليس بينها وبين القدرة على كبح جماح النفس صلة.

<u>رابعاً : قذارة ولا بهاء</u>

تترك الأهواء والميول في النفس القذارة، وتسلبها نقاءها وصفاءها وبهائها. ولابن سيراخ شبيه هو:

"من لمس القطران *(القير)* توسخ". (سيراخ 1:13)

حينما يلمس الإنسان القطران يتسخ، وهذا اللمس هو تعبيرا عن المحاولات الجادة من قبل الإنسان لإشباع أهوائه وميوله.

تتعكر المياه الصافية بإلقاء قطعة من الطين فيها، وتصبح سوداء معكرة وتفقد صفاءها، كذلك تتدنس النفس بالشهوة والميل الرديء.

تشوّه الفرشاة الملوثة بالفحم والهباب أجمل صورة إذا استخدمناها. وكذلك تشوّه الأهواء والشهوات والميول المدنسة أجمل صورة للإنسان، وتفقده نقاءه وبهاءه.

يضع النبي أرميا لنا مقارنة بين الصورتين.

- الصورة الأولى التي تعبر عن النقاء.

"كان نزرها أنقى من الثلج وأكثر بياضاً من الثلج وأجسامهم أشد حمرة من المرجان. جرزهم كالياقوت الأزرق". (مراثي 7:4)

- الصورة الثانية القبيحة هي .

"صارت صورتهم أشد ظلاماً من السواد. لم يعرفوا في الشوارع لصق جلدهم بعظمهم صار يابساً كالعشب". (مراثي 8:4)

توضح الصورة الأولى :

أن النفس الخاضعة لله تكون أكثر صفاءً وبياضاً من الثلج، وأصفى من اللبن، وألمع من سن الفيل، وأجمل من العقيق، وتمثل هذه الصفات الأربع كافة أنواع الجمال والكمال.

وتوضح الصورة الثانية :

فقدان هذا الجمال والكمال نتيجة للشهوات الحقيرة والخسيسة والميول الدنيئة والأهواء القبيحة.

ويعرض القديس بولس مفارقة أخرى مشابهة لمفارقة إرميا النبي، مع الفارق أن أرميا يبدأ بالصورة الكاملة أولاً، وينتهي بالصورة الناقصة والقبيحة، بينما يبدأ بولس بالصورة المشوهة وينتهي بالصورة الجميلة.

الصورة الأولى وهي البشعة يعرضها بولس.

"وأنتم إذ كنتم أمواتاً بالذنوب والخطايا. التي سلكتم فيها قبلاً حسب دهر هذا العالم حسب رئيس سلطان الهواء الروحي الذي يعمل الآن في أبناء المعصية. الذين نحن أيضاً جميعاً تصرفنا قبلاً بينهم في شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار وكنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضاً". (اف2:1-3)

"أنكم كنتم في ذلك الوقت بدون المسيح أجنبيين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد لا رجاء لكم وبلا إله في العالم". (اف 2:12)

ثانياً: الصورة الجميلة والكاملة في المسيح يسوع.

"ولكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح". (اف2:13)

"فلستم إذاً بعد غرباء ونزلاء بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله. مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية". (اف 2:19-20)

الصورة التي ذكرها القديس بولس واضحة جداً بمحاولة جادة في إيجاد ترابط بين صورة النبي أرميا والقديس بولس فنستطيع أن نجد الآتي.

ينطلق أرميا من حقيقة الإنسان بعد الخلق الذي هو حسن جداً . وتتحول هذه الصورة الجميلة بعد الخطيئة للشهوات والأهواء والميول، فتُشوه وتصبح حقيرة خالية من نقائها وصفائها الموجود بعد الخلق. يتسلم القديس بولس هذه الصورة، صورة الإنسان الخاضع لسلطان رئيس هذا العالم، عن طريق الأهواء والشهوات، وبهذا الخضوع صار الإنسان بلا إله، ولا رجاء، ولا وعود. إلى أن جاء المسيح يسوع وجدد هذه الصورة بل وغيرها إلى صورته هو شخصياً وأصبح الإنسان من بيت أهل الله ومن جماعة القديسين.

ونجد الإنسان في عرض القديس بولس وكأنه يشبه النفس البشرية يتيما شريدا، أو ضل الطريق ملابسه رثة أو ممزقة، غير نظيف الوجه. مجهول الهوية، انضم للملجأ للعناية به. وفي الملجأ قام القائمون عليه بالعناية بهذا الطفل من غسيل، ونظافة وألبسوه أجمل الحلي. وفجأة أخذته عائلة كريمة الأصل ليعيش معها. فشتان بين الصورتين، صورة الطفل الشريد قبل دخول الملجأ، والصورة الثانية لنفس الطفل بين عائلة كريمة النسب.

خامساً :استنزاف واستقطاب:

تقوم الأهواء والشهوات بعمل خطير وهو إهدار طاقة الإنسان، وفقدانه قوته.

فالأهواء إن لم تنجح في استقطاب طاقة الإنسان نحوها، تعمل جاهدة على استنزافها وتشتيتها لتعوق نجاح الإنسان في العمل والحياة.

يعقوب أبو الآباء شبه أبنه رأوبين بالماء الفائر. **"فائراً كالماء لا تتفضل. لأنك صعدت على مضجع أبيك حينئذ دنسته. على فراشي صعد"**. (تك 4:49)

أطلق يعقوب هذا التشبيه على ابنه رأوبين، لأن رأوبين قد أطلق العنان لميوله وأهوائه وارتكب المعصية. وكأنه قال له، بما أنك فرت كالماء واتبعت ميولك، فلن تنمو في الفضيلة. وكما أن الماء الفائر الذي لا يبقى عليه الغطاء، سرعان ما يفقد حرارته، وكذلك قارورة الطيب العطر متى تعرضت للهواء تفقد رائحتها تدريجياً .

وفي سفر الأمثال نجد الآتي :-

"للعلقة بنتان تقولان هات هات". (ام 30:15)

الأهواء والميول كالعلقة التي تمص الدماء، ولا تكف عن مص الدماء من الأوردة. هذه العلقة تعيش وتستمر في الحياة على دماء الآخرين واستنزافهم وإضعافهم.

لقد صرخ يشوع بن سيراخ في صلاة عميقة قائلاً **"أيها الرب أبو حياتي وإلهي لا تدعني أطمح بعيني وأصرف الهوى عني. لا تتملكني الشهوة الجنسية والزنى. ولا تسلمني إلى الهوى الفاجر"**. (أبن سيراخ 23:4-6)

هذه صلاة حارة من قلب ممتلئ بروح الله يطلب من سيده أن يحفظ حياته من الأهواء والشهوات.

عزيزي ارفع قلبك إلى الله، واصرخ مع ابن سيراخ الذي أدرك قوة وعظمة العشرة مع الله. وأدرك تعاسة وهزالة الحياة التي فيها أهواء وشهوات، أطلب من الله أن يصون القلب والعين والفكر ويقوي الإرادة والعزيمة .

لا تظن نفسك أنك قوي الإرادة والعزيمة، وتكف عن حياة الصلاة والتسليم لله. هذا هو شمشون الجبار، نذير الله، ولديه قوة من عند الله. ماذا فعلت الأهواء والميول والشهوات بهذا الجبار؟

لقد فتح قلبه للأهواء، واتخذها له صديقة تصاحبه في حياته. وأقنعته هي أيضاً بالأمانة والحب والوفاء والإخلاص. وارتبط شمشون بدليله ارتباطاً يصعب فيه الانفصال، ونسي أنه قاض من القضاة، ونذير الله، وابن الصلاة. **"فكشف لهل كل قلبه وقال لها لم يعل موسى رأسي لأني نذير الله من بطن أمي. فإن حلقت شعر رأسي تفارقني قوتي وأضعف وأصير كأحد الناس"**. (قض16:17).

لقد تظاهرت دليله بالحب والإخلاص لشمشون، وفي الآن ذاته هي حليفة الأعداء والشيطان، دليله تأخذ من شمشون كل ما بجعبته وتسقطه في الكلام، وتستنزف قوته وطاقته وهذا هو الغرض من مصاحبته، وشمشون بالهوى غفلان إلى أن صار ضعيفاً هزيلا .

"فانتبه من نومه وقال أخرج حسب كل مرة وأنتفض ولم يعلم أن الرب قد فارقه". (قض16:2).

إنه من الصعب على الإنسان أن يرى أنه هدف وغرض للاستنزاف والاستهلاك، ويلمس ذلك عن قرب، ويستمر ويستسلم لأصحاب الغرض، هكذا أستسلم شمشون لدليله، والتي هي رمز للأهواء والشهوات، وهو يعلم بالخبرة والتجربة المتكررة بأنها متواطئة مع أعدائه ورغم ذلك يستسلم لها.

لقد خدرته الأهواء، وقدمت له اللذة والراحة الوقتية، بأنها تركته نائماً في حجرها. هذا النوم الغرض منه تخدير الأعصاب ومزيد من الاستسلام .

وبهذا الاستسلام صار شمشون موضوعاً للسخرية والاستهزاء .

وينصح القديس بولس ينصح تلميذه تيموثاوس قائلاً :

"أما الشهوات الشبابية فاهرب منها وأتبع البر والإيمان والمحبة والسلام مع الذين يدعون الرب من قلب نقي". (2تيم 22:2)

أيها الشباب أمامكم فرصة لاستعادة قوتكم، والاستفادة من طاقتكم، أمامكم فرصة للنجاة بأنفسكم من خيوط العنكبوت وهي الشهوات والأهواء، أمامكم فرصة للثورة على كل من يستهلكم بغير وجه حق. لا تستسلم يا أخي للوهن والضعف أرجع إلى البقية النقية في داخلك من الفضيلة، وأعد النظر في ترتيب مشاعرك الحميدة ورغباتك الثمينة للبلوغ بها إلى هدف نبيل.

يا أخي لا تستسلم ولا تتهاون ولا تخزى أمام مَن يذهب أمتعتك أمام عينيك.

<u>سادساً : عبودية ولا إله.</u>

الأهواء جعلت من كل شيء إلها، ما عدا الله ذاته لم يصبح إلها. فالأهواء تقنع الإنسان بمبدأ الحرية والتحرر من العبادة ومن الله. وتقنع الإنسان بأن العبادة لله عائق وقيد للحرية. إذ تفرض العبادة قيوداً أخلاقية تمنع الإنسان من تحقيق ذاته، وتمنعه من لذة التمتع بالحياة والوجود. ويندفع الإنسان وراء هذه القناعات المزيفة فيتمرد على الله، على الدين، على التقوى، على الأخلاق ويصبح لا شيء له من هذا القبيل. ومن هنا تضمن الأهواء سيادتها على النفس واستعبادها.

"شعبي صنع شرين : تركوني أنا ينبوع المياه الحي، واحتفروا لهم آبارا مشققة لا تمسك الماء" (ار2:13) وهناك نوعية من البشر تستخدم معهم الأهواء سياسة الوفاق أو التوفيق بين الأضداد. ولكن هذه هي سياسة غير ناجحة، لأنه من المعروف أن الضدين لا يجتمعان في موضوع واحد.

"لأنه أية خلطة للبر والإثم. وأية شركة للنور مع الظلمة، وأي اتفاق للمسيح مع بليعال. وأي نصيب للمؤمن مع غير المؤمن. وأية موافقة لهيكل الله مع الأوثان" (2كو6:14-16)

لا صلة بين النور والظلام، بين الحق والباطل، بين الحياة والموت، بين الحب والكراهية. فحينما تتجه النفس إلى الأهواء والميول الدنيئة والخسيسة يعني ذلك دخول الأصنام وعبادة الأوثان لهذه النفس. وبالتالي كيف يتم الوفاق بين الله الإله الحقيقي وعبادة الأصنام والأوثان؟ كيف يكون هيكلاً لله وفي نفس الوقت هو للأصنام والأوثان؟

إن حالة الاتحاد بالله هي أن تتحول إرادة النفس تحولاً تاماً إلى إرادة الله، وحيث لا يوجد هناك ما يخالف الإرادة الإلهية. فلا تتحرك إلا في اتجاه إرادة الله ومن أجلها في حالة تعلق النفس بالشهوات والأهواء والميول، فلن تتحقق فيها إرادة الله لأنها تفعل ما يخالف إرادة الله.

على من يرغب في علاقة مع الله، يجب أن يتخلص من الأهواء والميول التي تنحرف به عن مجال القداسة. وإن كانت هذه الميول بسيطة وضئيلة. أن النفس المرتبطة، سواء كان هذا الرباط من الخيط الرفيع أو الثقيل، فلا يستطيع الطيران والتحليق ما لم يفك قيده. وإن كان التخلص من الخيط الرفيع أسهل من الخيط السميك، ولكن مهما كانت هذه السهولة فإن الطير لن يستطيع التحليق ما لم يفكه. لا نستهين بالشهوات البسيطة، ولا نحتقر الأهواء الضئيلة فهي تعبث في النفس كالثعالب الصغيرة في الكروم حتى تفسدها.

"خذوا لنا الثعالب الثعالب الصغار المفسدة الكروم لأن كرومنا قد أقلعت" (نش 15:2)

"الذي يحتقر اليسير يسقط شيئاً فشيئاً " (بن سيراخ 11:19)

ثقب بسيط في جانب من جوانب سفينة عظيمة قد يؤدي إلى غرق السفينة مع الوقت.

"من شرارة واحدة يكثر الحريق". (يش 32:11)

ثغرة واحدة في حياة الإنسان كفيلة بأن تقود إلى عدة ثغرات. ونقيصة واحدة تجلب وراءها نقيصة أخرى. وفي حروب شعب إسرائيل، كان يمنع ويحرم الله عليه الانسياق وراء الميول والأهواء الذي يتجلى في عنصر الاشتهاء. فيقول ليشوع بن نون عند دخوله أريحا وطن الأهواء والشهوات.

"وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف". (يش21:16)

نفهم من ذلك هو أن الوصول إلى الاتحاد بالله يتطلب تحريراً لكل ما هو كامن وحيّ في النفس. وأن تظل النفس في تجرد من جميع شهواتها الصغيرة والكبيرة، كما لو كان هذا الشيء غير موجود بالنسبة لها، أو كانت هي غير موجودة بالنسبة له.

"فأقول هذا أيها الأخوة أن الزمان قصير، فبقي أن يكون الذي لهم نساء كأنهم لا نساء لهم والباكون لأجل إنشاء هذا العالم كأنهم لا يبكون والفرحون كأنهم لا يفرحون والمشترون كأنهم لا يملكون والمستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه". (1كو 7:29-31)

لا يعترف بعض الناس بما كتبه القديس بولس، لأنها مقتنعة بشيء واحد وهو أن الله ُيفرض قيوداً معينة، وحدوداً أخلاقية، وحرية مشروطة. وأن الله يضع ما يكون حائلاً أمام سعادة الإنسان وتمتعه بالحياة، وبما تجود به الحياة.

أراد القديس بولس أن يوضح ، بأنه ليس أمامنا سوي القليل من الوقت لنستمر في هذا العالم، لذا يجب علينا ألا نضع قلوبنا على المسرات العالمية لكي لا يلتهمنا العالم باهتماماته ومتاعبه. فليس العالم إلا مظهراً أو هيئة بدون شيء ثابت فيه كما أنها مظاهر زائلة سرعان ما تزول.

لماذا لا نسمع لصوت الشهوة ونداء الرغبة؟

أليس من معطيات الحياة هي الرغبة والشهوة؟ أليس هو الله الذي وضع في كيان الإنسان الرغبة والشهوة؟ أليس هو الله الذي وهب لنا أيضاً الحياة لنتمتع بها؟ هل ندم الله على ما وهبه لنا.

هذه هي الأسئلة التي تبدو كالحجج أمام الذين يرغبون في السلوك بحسب الجسد، وبلا إله رافضين منطق الروح. يتمرد إنسان الجسد على الله رغبة منه في الحرية والاستقلال، والعمل بموجب الشهوات والأهواء. وأعطي الكتاب المقدس مثلاً على خيبة الأمل لمثل هؤلاء وهو مثل الابن الشاطر والضال. الذي أخذ نصيبه من الميراث وذهب لكورة بعيدة مبذراً ماله، ومهدراً طاقاته المادية والنفسية والروحية. وعمل عبداً وصار محتقراً ونجساً. واكتشف خيبة الأمل التي سعى إليها. واكتشف خيبة الأمل عندما عاد إلى نفسه. واستيقظ من نومه وفاق من مخدر الشهوة التي استعبدته وقيدته وحطمته وربطته في سلسلة واحدة مع الخنازير، واكتشف الجوع والعري والاحتياج والعوز الشديد وعاد إلى حضن الآب ليحيا حياته من جديد، في ظل الأمن والاستقرار والحب والشبع والارتواء في البيت العائلي وفي ظل حماية رب العائلة وهو الله.

<u>سابعاً : فقداناً وخسراناً</u>

الأهواء والميول والشهوات، لا يتوقف تدميرها المادي والجسدي والمعنوي والأدبي والنفسي والعاطفي والاجتماعي لحياة الإنسان، بل وتسبب خسارة روحية أيضاً. لأن الإنسان يفقد حيلته الأبدية ويخسر مصيره الأبدي**"أما العاهرون والزناة فسيدينهم الله"**. (عب 4:1)**"لا زناة. ولا فاسقون.... ولا سكيرون يرثون ملكوت الله"**. (1ك 9:6)" **ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه"**.

"من أراد أن يخلص نفسه يهلكها، ومن أهلك نفسه يخلصها".

ويكفي التعليق على الآية الأخيرة وهي أن مَن يشبع شهواته يظن أنه يرضي ذاته وبالتالي يمتعها بالحياة ويخلصها ويجعلها تشعر بالراحة.

ولكن مثل هذا الإنسان يضر ذاته ولا ينفعها وذهب بها إلى الهلاك.

والإنسان الذي يقف مع ذاته وقفة فيها الجدية، ويميز رغبات وطلبات وميول النفس، وبالتالي يستطيع أن يقمع ذاته ويهذب شهواته، فمثل هذا الإنسان يخلص نفسه وينقذها .

"لأن غضب الله معلن من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم الذين يحجزون الحق بالإثم". (رو 18:1)

معالجة الأهواء والميول

1- **الطريقة الطبيعية لمعالجة الأهواء للإنسان العادي**

المعالجة نعني بها الطريقة والأسلوب الذي يؤدي بالنفس إلى الاعتدال والاتزان بخصوص الهوى والميل – فالنفس التي تخضع لأهوائها وميولها تُعد متطرفة لأنها تلغي دور العقل والإرادة.

علينا أن نبحث عن الكيفية التي تُعيد للإنسان الطبيعي توازنه واعتداله .

خطوات المعالجة:-

أولاً الفحص والكشف عن مكمن الهوى في النفس

إنه من الضروري أن يقف الإنسان لحظات مع ذاته، ليفحصها جيداً. ويكشف عن مداخل الهوى لذاته، وأين يكمن ؟ لابد للإنسان من الجدية في الفحص الذاتي والتعرف على الفجوات والثغرات، التي تنفذ منها الأهواء. فإذا ظهر له ما خفي من جراثيم الهوى والميل قاومها بشدة أو حاول إصلاحها. الشخص الذي يرغب في تحقيق إنسانيته أو ذاته لا يترك نفسه في الحياة وكأنه ريشة في مهب الريح، يتحرك وفق المزاج وتقلباته. بل عليه أن يثبت ذاته ويحققها، ويوضح ملامحها ومعالمها وأن يصنع لنفسه كياناً متميزاً وواضحاً.

ثانياً : أن ألاّ يترك الإنسان نفسه فريسة الفراغ

الفراغ هو بمثابة وحش كاسر يهدد حياة الإنسان. الفراغ تستخدمه الأهواء والميول والشهوات، لاقتحام الإنسان لابتلاعه والسيطرة عليه. لأن الفراغ يترك قلب الإنسان في حالة سلبية وبهذا الوضع أو الشكل غير الإيجابي للقلب تعرض الأهواء رغباتها عليه وتحاول أن تستميله. وبمعنى آخر تخرج من اللاشعور أهواء سلبية تفرض ذاتها على القلب، والقلب هو بمثابة جهاز إداري في دولة الإنسان، عليه أن يقبل جميع الطلبات التي تعبر عن الرغبات والميول، ويُصعدها إلى جهاز آخر داخل الدولة وهو العقل، لبحثها ودراستها للموافقة عليها، ويصعدها لجهاز الإرادة الذي يقوم بمهمة التنفيذ أو برفضها، ويقوم في الوقت ذاته بإرجاعها لجهاز القلب الذي يخزنها، أو يرجعها بدوره إلى اللاشعور، وحينما لا يجد جهاز العقل طلبات إيجابية ترفع إليه لفحصها، يتحول الفكر بالتدريج إلى السلبية التي هي حالة من حالات الفراغ. وهذا الفراغ يقود الإنسان إلى التطرف والمبالغة في إشباع الأهواء والشهوات.

الإنسان السلبي عرضة لشعور الفراغ الذي لا يحتمل، وبالتالي نجده مدفوعاً للهروب لعالمه الخارجي، ليعيش السطحية وعدم الفاعلية في الحياة. وبسبب الفراغ تمنح للأهواء والشهوات فرصة ثمينة لتقدم رغباتها كخدمة للإنسان للخروج به من المأزق الذي هو فيه والقضاء على الفراغ الذي يعانيه. ومن هنا تسود الأهواء على دولة الإنسان. هذه السيادة لا تنقذ الإنسان بل تورطه في أعمال منافية للقانون وللأخلاق مثل: الإدمان لسائر الخمور والمكيفات، ولعب القمار، الجنس، التسلط والمعاكسة في الشوارع، واتقان أسلوب البلطجة والعنف والإرهاب .

يدفع الفراغ يدفع الإنسان ليعيش بعيداً عن ذاته ووطنه لشعوره بأنه غريب عنه، ولإحساسه باللامعنى.

ثالثاً : غاية الرغبة

اعتاد البعض التصرف بعشوائية وتلقائية، واعتاد البعض الآخر التصرف وفق نداء داخلي أو رغبة كيانية، دون التفكير في البحث أو معرفة مصدر هذه الرغبة أو في النتائج المصاحبة لها. لذا لابد من إعطاء فرصة للعقل ليفكر ويميز ويفهم ويقيم ويُقدر. إن لجهاز العقل في دولة الإنسان سلطة المعرفة والإدراك والوعي، ولكل رغبة أو نداء داخل الإنسان لابد لها من الخضوع لهذا الجهاز لأجل الفحص والتمييز والدراسة. **"لأن العقل في اللغة هو الحجر والنهي، وقد سمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة، لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل كما يمنع العقال الناقة من الشرود"**.

والعقل يدرك أيضاً صفات الأشياء من حسنها وقبحها، وكمالها، ونقصانها. ويملك العقل القدرة على تمييز الحق من الباطل، والخير من الشر، والحسن من القبيح.

ويُطلق علي الإنسان أنه كائن عاقل متميز بهذه الصفة عن سائر المخلوقات. والعاقل هو الذي يفكر تفكيراً صحيحاً، ويحكم على الأشياء حكماً صادقاً، ويعمل عملاً صالحاً. فلا يسمى عاقلاً حتى يكون خيراً، بخلاف الجاهل الذي يستعمل فكره في فعل الشر، فلا يسمى عاقلاً، بل يسمى داهياً أو ماكراً أو شهوانياً، أو هوائياً. والعاقل هو الذي يعرف يكبح جماح نفسه، ويُعرض عن كل ما يجاوز نطاق قدرته ويوقعه في المهالك. والعاقل هو الذي يتقيد بالذوق والعرف العام، أو بأحكام القيم المقبولة في زمانه، ويرد أنه المعتدل والمتزن.

وهناك أشخاص لا يريدون الخضوع لجهاز العقل للضبط والتحكم في رغباتهم، ورغبة منهم في التحرر من المنطقية والحكمة والحياة المتعقلة. هؤلاء يكونون تحت تأثير مخدر الشهوة مما يجعلهم في حالة تسمى بالغيبوبة. والغيبوبة هي حالة يكون فيها الجسم في وضع ثبات على ما هو عليه من نبض بالحياة، ولكن وظيفة العقل تتوقف نتيجة لأخذ مخدر معين (شهوة معينة) يجعل الإنسان في حالة الشهوة واللذة، ولكنه في غيبوبة عن واقعه وحقيقته وعالمه. وبالتالي لا يعرف ولا يدرك غاية أو هدف أفعاله لعدم خضوعه للعقل بل للهوى.

رابعاً : العواقب الوخيمة:

لكل فعل بشري نتيجة أو عاقبة، تتوقف هذه العاقبة على فعل الإنسان ذاته، إذا كان جيداً أو رديئاً .

الإنسان العاقل هو الذي ينظر للعاقبة قبل الفعل، ويحيط بالجوانب المختلفة له. ويكون لديه بُعد نظر يتعدى الفعل ذاته واللحظة الحاضرة ذاتها. بمعنى أن تكون لديه شمولية النظرة.

ويفتقر الإنسان الشهواني إلى النظرة الشاملة، فهو ينظر من جانب واحد فقط ويترك الآخر، أو يتجاهل البعد والجانب الآخر . فهو يعيش اللحيظة الحاضرة تحت تأثير اللذة والنشوة، ولا يدرك جانبها الآخر.

يعيش الإنسان الشهواني اللحظة الحاضرة والقصيرة، ويتجاهل انعكاس هذه اللحظة على حياته بجملتها أو مستقبله بأكمله.

يستطيع الإنسان العاقل إدراك عاقبة لحظة اللذة بما تجنيه من آلام. هل يدرك الإنسان الشهواني الخاضع للأهواء الخسيسة مقدار الألم الذي يصاحب اللذة ؟ هل يدرك ما يعانيه من عذاب الضمير، والشعور بالإثم والذنب؟ هل يدرك مقدار الجروحات والآثار التي تتركها الشهوة في كيانه؟ هل يدرك مقدار التمزق، وفقدان الصفاء والنقاء الداخلي؟ هل يدرك مقدار الاحتقار وعد الاحترام من المجتمع؟ والاحتقار الأعظم من ذاته؟

هل يدرك الإنسان الشهواني بأنه يصبح مجرد دمية أو لعبة تعبث بها الأهواء؟

الإنسان العاقل هو مَن يتجنب العواقب الوخيمة ويتصرف تصرفات حميدة.

أيها الإنسان، الذي يترك ذاته مترنحاً ثملاً من تعاطيه جُرعات مكثفة لشهوات مختلفة، إلى متى تكون في حالة الغيبوبة؟ متى تعود إلى الحياة؟ متى تنقذ ما بقي لك من الحياة؟ هل تظل هكذا للأبد؟

أعلم أنك تخشى أن تعود لتواجه ما آلت إليه نفسك، أنت تخشى أن ترى ذاتك خوفاً من الشقاء، وخوفاً من الفزع، أرجوك أن تعود إلى ما بقي لك، خيراً من ألا تعود إطلاقاً.

<u>خامساً : أن لا تستجيب لطلبات الهوى</u>

أن لا تستجيب لطلبات الهوى، ولا ترضى الرغبات بمعنى الامتناع عن الأفعال التي من شأنها تُرضي رغبة من الرغبات التي تقوي فينا الهوى. مثل الرغبة في قراءة كتاب أو مجلة بها قصص تثير الشهوات والغرائز بالصور والوصفات. ومثل الرغبة في مشاهدة أفلام غير منضبطة بالحشمة والوقار فتترك صوراً سلبية في الذهن يتخيلها ويحفظها ويستلذ بها. وهناك مقولة أن

الهوى الذي لا يدرك غايته يضعف، وكثيراً ما يرغب المرء في شيء، فإذ شعر بعجزه عن إدراكه أعرض عنه.

كلما أسرعنا لإرضاء الرغبة كلما زادت شوكة الهوى وتعزز موقفها إذ يدرك أن الإنسان هو مجرد عبد وتحت سطوته.

يتغذى الهوى ويكبر ويتضخم بتلبية كل رغباته، ويصغر حجمه وينكمش ويتضاءل كلما أحجمنا عن ذلك.

والإنسان هنا يكون مسؤولاً عن كل ذلك، فهو في استطاعته أن يكون إنسان الأهواء والمزاج، أو إنسان الجد والالتزام والانضباط. وذلك بممارسة الأفعال التي تزيد من نار الهوى والشوق والميل، أو بإطفاء نار الهوى وتهذيب الميل وتمييز الرغبة.

يستطيع الإنسان استخدام الإرادة التي هي بمثابة الجهاز التنفيذي في دولة الإنسان، فالإرادة القوية والصالحة تستطيع تنفيذ ما تقتنع به من أفعال رغم النزعات الأخرى غير الصالحة المقاومة لها. الصمود أمام الرغبات والأهواء الخسيسة في عدم التنفيذ.

ثانياً : معالجة الأهواء روحياً

تخص المعالجة السابقة كل إنسان يرغب في تحقيق إنسانيته. تخص الإنسان الذي يحفظ قيمته ويصون كرامته ويعتز بذاته ولا يسمح للأهواء والشهوات بأن تقلل من قيمته الإنسانية.

وهذه المعالجة التي نقدمها الآن تقدم للإنسان الذي يرغب في أن يحيا حياة روحية صادقة، رغبة منه في حياة أكثر إنسانية .. **"الذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة. ولهذا عينه وأنتم باذلون كل اجتهاد قدموا في إيمانكم فضيلة وفي الفضيلة معرفة. وفي المعرفة تعففاً وفي التعفف صبراً وفي الصبر تقوى"** (2بط 1:4-6)

الإنسان مدعو ليصير شريكاً في الطبيعة الإلهية بفضل نعمة التبني، ولذا عليه أن يهرب من والشهوات الموجودة في العالم وأن يسعى نحو الفضيلة والمعرفة والتعفف والصبر لينمو في التقوى.

"مولودين ثانية لا من زرع يفنى بل مما لا يغني بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد. وكل مجد إنسان كزهر عشب. العشب يبس وزهره سقط". (1بط 1:23)

الإنسان الروحي هو الذي ولد ثانية في المسيح يسوع بالمعمودية، ونال حياة التجديد بالروح القدس. وهذه الولادة لا تقود إلى الفناء بل الحياة الأبدية. أما الولادة الجسدية والتي تبقى في الجسد فهي معرضة للفناء والزوال كعشب الحقل.

والقديس بطرس يطلب من المولدين ثانية طلباً عزيزاً وغالياً وهو الابتعاد عن الشهوات وأن يتذكروا أنهم في هذا العالم غرباء.

"أيها الأحباء أطلب إليكم كغرباء أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التي تحارب النفس". (1بط 2:11)

الغريب يُحسن معيشته ويحترم تصرفه ويسلك بلياقة ليرجع لوطنه سالماً وآمناً.

<u>الخطوات التي يجب إتباعها من الإنسان الروحي في زمن غربته.</u>

أولاً : تقدير خطورة الشهوات والأهواء

الإنسان الذي يسعى للحياة الروحية يقدر قيمتها، ويكون جاداً وملتزماً بها ويعرف الأشياء التي تشكل خطورة عليها ويبتعد عنها.

"أيأخذ إنساناً ناراً في حضنه ولا تحترق ثيابه أو يمشي إنسان على الجمر ولا تكتوي رجلاه". (أم 6:27-28)

فالإنسان الذي له مسعى روحي عليه أن يعرف أن الشهوات والأهواء هي مثل النار. وهي مثل الجمر التي تشتعل من الداخل وتبدو أو تظهر من الخارج صافية وكأنها بلا نار ومتى مشي عليها الإنسان اكتوت بها قدماه.

ويصور أشعياء النبي الأهواء والميول فيقول :

"لأن الفجور يحرق كالنار. تأكل الشوك والحسك وتشعل غاب الوعر فتتلف عمود دخان" (أش 9:18)وهنا يدرك الإنسان الروحي أن الأهواء والشهوات مثل اللعب بالنار.

قصة :

قصة الحاوي الذي كان بحوزته مجموعة من الثعابين، وكان بينهم ثعبان سام وخطير جداً، فقبض الحاوي على رأس واحد من الثعابين حتى أنه جعل الثعبان عاجزاً عن الحركة تحت يديه والجميع يشجعون الحاوي ويصفقون ويهتفون له. ولكن ذلك الثعبان جعل يلف جسمه حول يدي، الحاوي وضغط عليها بشدة فأفلت عنق الثعبان ولدغه لدغات سامة قاتلة فوقع على الأرض مائتاً .

هكذا مصير الإنسان الذي يعقد صداقة مع الشهوات والأهواء.

والإنسان الروحي يعرف تماماً بل ويقدر خطورة الشهوات والأهواء الدنيئة ولا يتصافح معها.

ثانياً : الاحتراس من صغائر الرغبات والشهوات

فكرة واحدة، نظرة واحدة، شهوة واحدة، قد تكون هذه صغيرة في نظرك، ولكن ما أخطرها إذا اختمرت وتفاعلت في أعماقك، وإذا أهملتها إهمالاً فهي تدفعك للسقوط ويكون سقوطك مريعاً .

"خذوا لنا الثعالب الصغار المفسدة الكروم". (نش 2:15)

"ومن يزدري بيوم الأمور الصغيرة". (زك 4:10)

لا يتعاون الإنسان الروحي والذي يرغب في السمو والتعالي الروحي مع صغار الثعالب وهي في مهدها. فهو يحترس منها لأنه يعلم أن الشهوة إذا حبلت تلد خطيئة والخطيئة تنتج موتاً .

يقول أحدهم : **"إن كل فكر وكل نظر أو قول له سلطان، إنه يعمل خطاً رقيقاً كلما تكرر. ويصبح طريقاً سلطانياً يركض فيه الفكر الرديء ذهاباً وإياباً بكل سرعة وبدون ممانع حتى يربط صاحبه بسلاسل قوية فيما بعد"**.

ويقول داود النبي :

"يا بنت بابل الشقية (المخربة) طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا. طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة". (مز 137:8-9)

طوبى لمن يمسك تلك الأشياء التي تنبع من العدو ويتخلص منها، ولم تعد الأفكار الشريرة التي تنمو وتوجد في داخله ولم يعد لها سلطان عليه لتقوده لفعل الشر. ولكن مجرد أن تبدأ الأفكار **"مرحلة الطفولة"** وقبل أن تتقوى يدفنها عند الصخرة أي في المسيح، فيتخلص من الأفكار الشريرة نهائياً بالالتجاء إلى المسيح.

ثالثاً : احذر خداع الأهواء والشهوات

الشهوة براقة وجذابة. وتستطيع أن تبني خطتها الهجومية بطريقة لائقة ومقبولة.

قيل عن حيوان وحشي في أفريقيا بأنه يخدع فريسته. إذ يتسلح هذا الحيوان بمراوح كبيرة يروح بها لفريسته، حتى تجد نفسها في جو مريح فتنام هادئة، وإذ ذاك ينقض عليها هذا الوحش ويبطش بها للموت.

تعلمنا الحياة أن الشجرة تبدأ بالزهرة، وتبدأ الزهرة بالبذرة، ويبدأ المطر بالقطرة، ومعظم النار من مستصغر الشرر.

شجرة الخطيئة تبدأ ببذرة الميل، الرغبة والهوى فلنجتنب الخطيئة ونعرض عن الشهوة لنسلم وتسلم حياتنا.

رابعاً : اهرب من الشهوات الشبابية

في فكر البعض، أن الهروب ليس من شيم الشجعان والأبطال والأقوياء بل صفة الضعيف والجبان، ولكن القديس بولس ينصح تلميذه تيموثاوس بالهرب، والهرب له قيمة عظمى في حرب الأخلاق، وخاصة في المجال الجنسي، فالهرب في هذا الميدان أوفر شجاعة، وأكثر جرأة، وأقوى قلباً، من المحارب.

"أما الشهوات الشبابية فأهرب منها". (2تي 33:2)

فلا يقول الرسول قاوم الشهوات الشبابية أو أمتنع عنها، أو ادفعها، بل أهرب منها.

"اهربوا من الزنا". (1كو 18:6)

"هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة". (2بط 4:1)

"ترك ثوبه ... وهرب". (تك 12:39)

أخي هل تعلم أن أسلوب عدو الخير أسلوب استفزازي هدفه الإثارة .

هذه الإثارة تدفع الإنسان للاندفاع والتهور وتكون النتيجة التورط في الإثم والخطيئة.

أخي : هل تعلم أنك لست أقوى من شمشون الجبار الذي طاف به المطاف للاستسلام.

خذ يوسف الصديق لك مثلاً، فأمام التجربة وأمام الدنس فرّ هارباً تاركاً ثوبه ليحفظ قلبه طاهراً عفيفاً .

هناك رأي آخر للسيد المسيح وهو :

"فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها والقها عنك. لأنه خيراً لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها والقها عنك خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم". (مت 5:29-30)

<u>أولاً :</u> نتفق معاً على معنى العثرة وهي الشيء الذي يصيد الإنسان ويخدعه ويؤدي إلى هلاكه.

<u>ثانياً :</u> ماذا يقصد المسيح بالقول: نقطع كل ما يسبب لنا العثرة؟ لا شك أنه لا يقصد تطبيق الكلام حرفياً، لأن العادات الرديئة والرغبات الشريرة، ليست متعلقة بجزء معين محدد في جسم الإنسان، بل هي نابعة من العقل والقلب والتصور. وكل هذه أشياء معنوية وليست حرفية.

إن هذه الفقرة تأتي مباشرة بعد الحديث عن الرغبات والأفكار الممنوعة المحرمة. وكأنما يفترض المسيح أن أحداً سأله بعد حديثه قائلاً: كيف نستطيع أن نتخلص ونحرر أنفسنا من الرغبات والأفكار غير النقية؟ الواقع أن هذه الأفكار تفاجئنا دون إرادتنا، ومن الصعب أن نغلق الباب دونها.

نجد موقف بعض الناس هو الإصرار المستمر على عدم التفكير في هذه الأمور. فهناك أناس يجلسون مرددين قائلين : عزمت أن لا أعمل هذا الشيء .. عزمت على طرد هذا الفكر من عقلي..

لكن الاختبار يعلمنا أنه كلما كررنا هذا الكلام ، نركز تفكيرنا فيما نريد أن نبتعد عنه.

نأخذ مثل الرهبان. هؤلاء الرهبان أرادوا أن يقطعوا علاقتهم بالعالم الشرير فاختاروا صوامع في الصحاري ليتعبدوا فيها، ولكنهم لم ينجوا من صراع الأفكار الشريرة. فقد قيل عن القديس أنطونيوس أب الرهبان، أنه قضي خمسا وثلاثين سنة في عزلة، صائماً، مصلياً، معذباً جسده، لكنها كانت سنوات مليئة بالصراع. وقيل في تاريخ حياته، إن الشيطان كان يحاول أن يذكره بثروته ومطامع العالم... وقيل إن الشيطان اتخذ صورة امرأة له في إحدى الليالي بحركات خليعة لتسقطه .. وهكذا لم ينجُ من الصراع . إذاً فالصراع لإيقاف الأفكار الشريرة لا يمنعها وقد يزيدها.

خامساً : الامتلاء بالفكر الصالح، والعمل المسيحي

إن الطريق الأمثل لهزيمة الرغبات الشريرة، هو أن نمتلئ من النشاط والخدمة المسيحية، حتى لا يكون هناك وقت لمثل هذه الأفكار أن تدخل إلينا ... أن نفكر في الآخرين كثيراً، بحيث ننسى أن نفكر في نفوسنا.

"الديانة الطاهرة النقية عند الله الآب هي هذه : افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقاتهم وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم". (يع 27:1)

"إن كان أخ وأخت عريانين ومعتازين للقوت اليومي. فقال لهما أحدكما أمضيا بسلام استدفئا واشبعا ولكن لم تعطوهما حاجات الجسد فما المنفعة. هكذا الإيمان أيضاً إن لم يكن له أعمال ميت في ذاته". (يع 17:15)

وعلينا أيضاً أن نملأ عقولنا بالأفكار الصالحة. فالطريق الأكيد لهزيمة الفكر الشرير، هو الانشغال بفكر صالح.

"فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح أيضاً". (فيل 5:2)

بهذا نقلع عيوننا المعثرة، لنستخدم عيوننا في الخدمة والعون للناس، ونقطع أيدينا الآثمة، لنمدها بالتضحية والجهاد لأجل الآخرين.

كيفية التسامي والتعالي بالأهواء والشهوات؟

التسامي والتعالي، يفترض الإيجابية أو الإيجابية لا تبدأ بكلمات النهي والتحذير.

أولاً : سلوك المسيح في القلب والتسليم الكلي:

إن الشاب الذي يريد انتصاراً حقاً يحتاج لقوة خارجية عن القوة الذاتية، قوة سامية صادرة من فوق. وهذا ما عبر عنه بولس.

"أتستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني". (في 13:4)

المسيح هو سر الانتصار الحقيقي.

"أنتم من الله أيها الأولاد وقد غلبتموهم لأن الذي فيكم أعظم من الذي في العالم". (1يو4:4)

هذه هي الغلبة التي تهزم العالم عن طريق إيماننا بأن يسوع هو ابن الله. وإيماننا أن دم المسيح له قوة على تطهير الضمائر والنفوس من كل شهوة أو هوى أو ميل للخطيئة أو الآثم.

"من هو الذي يغلب العالم إلاّ الذي يؤمن أن يسوع هو ابن الله". (1يو 5:4-5)

"وقد غلبوهم بدم الخروف". (رؤ 11:12)

جاء الصوت للملك قسطنطين . بهذا تغلب أي بالصليب إننا نحارب عدواً مهزوماً قد أطاح السيد المسيح رأسه بسيف الصليب الرهيب.

الإيمان من أهم وسائل الانتصار .

يقول بولس الرسول :

"يعظم انتصارنا بالذي أحبنا". (رو 17:8)

وجاء في سفر التثنية عن المؤمن وحياة الانتصار.

"يجعل الرب أعداءك القائمين عليك منهزمين أمامك في طريق واحدة يخرجون عليك وفي سبع طرق يهربون أمامك". (تث 7:28)

إذا اتحدت بالمسيح بالإيمان عندئذ تصرخ : أين شوكتك أيتها الخطيئة ؟ وأين قسوتك أيتها التجربة ؟ تبحث عن أعداءك فلا تجدهم.

فاحفظ نظرك دائماً موجهاً لرئيس الإيمان ومكمله يسوع المسيح.

"مبارك الرب صخرتي الذي يعلم يدي القتال وأصابعي الحرب". (مز 1:144)

"ظللت رأسي في يوم القتال". (مز 7:140)

ويعني أن الرب يغطي رأسك في يوم الحرب ويعلم يديك القتال.

الإيمان يحول ضعفك إلى قوة.

قال أحد القديسين :

"إنه سعى وراء النصرة ووجد عدم قدرته للحصول عليها مع أنها معلنة على صفحات الكتاب وهذا اعترافه : صليت، صمت، تألمت، جاهدت، عزمت كثيراً، قرأت الكتاب بكل تأني وتأمل، كل هذا كان بدون نتيجة أو تأثير كل يوم وكل ليلة والشعور بالخطيئة يضغط عليّ وبدل النصرة حصلت هزيمة، شعرت بأنني ابن الله لكن كيف أرفع نفسي إلى هذا المستوى؟ ولكن لما زادت آلامي كشف الرب البرقع عن عينيّ عن طريق عبارة في خطاب وأظهرت وحدتي مع يسوع. ما هو هذا الخطاب؟ وما هي هذه العبارة؟ بالإيمان تتكون قناة فيها ملء المسيح ويصبح الغصن الجاف جزءاً من الساق المثمرة، ومعنى هذا الكلام هو أن كل انتصار لا يأتي بالقوة الذاتية فقط بل بقوة رب إله الجنود".

"لأن الله لم يعطنا روح الفشل بل روح القوة والمحبة والنصح". (2تي 7:1)

بالإيمان نتحد بالمسيح ونصبح وإياه وحدة واحدة لا نتجزأ كوحدة الغصن والكرمة فنموت معه عن العالم ونحيا للبر، وتنساب قوته في أعضائنا وحياتنا وأعصابنا وعواطفنا وعقولنا وإرادتنا.

"مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ". (غل 20:2)

هذا هو الإيمان الذي يغلب العالم، الإيمان بشخص المسيح عمانوئيل الله معنا، وقائدنا الذي يغلب العالم لنا، وحين قال أنا قد غلبت العالم، ردد كل جندي في فرقته وأنا قد غلبت العالم.

قصة :

سئل أحد البحارة الإنجليز : كيف غلبتم الفرنسيين وحطمتم أسطول نابليون في موقعة أبي قير رغم معاكسة الظروف لكم؟ فأجاب من فوره لقد غلبنا وانتصرنا لأن قائدنا نلسن كان هناك !! فيسوع معنا يسوع لنا، يسوع فينا !! فهل نخشى الهزيمة؟

ثالثاً : المواظبة على الصلاة

الصلاة والشركة مع الله هما حارسا النفس، بهما تطرد النفس الأفكار الشريرة والميول الدنسة، الصلاة قوة في كل شيء. وليس المقصود بالصلاة تلك الصلوات الشكلية التي نؤديها على سبيل العادة ولكن أقصد الصلوات التي يرتفع بها قلب الإنسان لساعته !. وهو سائر في الطريق، وهو جالس يقرأ، وهو في وسط زحام العالم، وهو نائم على سريره يشعر أنه في حالة صلاة أو كمال .

قال أحدهم **"إن النوم هو امتداد لصلاة المؤمن"**. فتصبح الحياة بجملتها كما قال داود :

"أما أنا فصلاة" . (مت 9:10-6)

وبهذا المعنى يتراءى القلب أمام الله ويبقى في محضره وفي مخافته بعيداً كل البعد عن كل شهوة جسدية ويصبح مقدساً قلباً وقالباً؛ فيعيش المؤمن في جو مشبع بروح الشركة والاتصال الدائم بالله. أفتح نوافذ نفسك ووجهها دائماً نحو العلاء فتنسكب عليك بركات السماء. وكل مؤمن يتعود على مقابلة التجارب بالصلوات تسهل عليه باستمرار.

قصة:

قيل عن الأب سيوزورس الفريمي إنه لما كان في الأسقيط قد قدم إليه الشيطان يريد الدخول إلى قلايته، فربطه في الخارج وبعد ذلك جاء شيطان آخر فربطه إلى جانب رفيقه أيضاً. ثم جاءه ثالث فوجد رفيقيه موثقين فقال لهما لماذا أنتما ها هنا قالا له إنه يجلس في الداخل ولا يسمح لنا أن ندخل. فلجأ هذا إلى العنف محاولاً الدخول فربطه الأب إلى جانب رفيقيه فلما خافوا من صلاته طلبوا منه قائلين أطلقنا فقال لهم اذهبوا فمضوا خجلين.

فالصلاة تخيف الشيطان وترعبه وتطرد الأفكار الشريرة ولذلك قال السيد المسيح **"اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة"** (مت 41:26)

رابعاً: المواظبة على درس الكتاب المقدس

كتب القديس يوحنا الإنجيلي في إحدى رسائله لأجل الشباب يقول : **" كتبت إليكم أيها الأحداث لأنكم أقوياء وكلمت الله ثابتة فيكم وقد غلبتم الشرير"**. (1يو 14:2)

فكلمت الله هي السيف الماضي، هي السلاح الكامل الذي به نقدر أن نطفئ بها جميع سهام الشرير الملتهبة، وينبغي أن نألف استعمالها بتأملاتنا فيها .

يتصفح الشباب اليوم المجلات والصحف والروايات بتلهف، أما الكتاب المقدس فهو غريب عنهم فلا غرابة إذا رأينا شاباً يهمل كلمة الله ويحتقرها. وأنا أريكم شاباً فاشلاً مهزوماً أمام شهواته وعاداته ولذا يقول المرنم.

"بما يزكي الشاب طريقه بحفظه إياه"

"بحسب كلامك " (مز 9:119)

كثيراً من الشباب اليوم قلبوا الأوضاع، فلم يعطوا الكتاب المقدس مكانته الصحيحة فاعتبروه مجرد تعليم وقوانين ومبادئ دينية، ونسوا أو تناسوا أنه كلمة الله الحية الفعالة. أو كما قال السيد المسيح :

"الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة" (يو 63:6)

كلمة الله هي كلمة محيية مجددة، مطهرة، هي غذاؤنا وسلاحنا، وقوتنا بل هي غذاؤنا.

"ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (مت 4:4)

إن كلمة الله هي طعام النفس، غذاء الحياة الجديدة. لذلك كل من يهملها لا يمكن أن ينجح في الحياة المسيحية.

قال واحد من القديسين :

"يوجد رجاء كبير لأشر خاطئ في العالم يطالع الكتاب المقدس. ويوجد خطر كبير على أكبر قديس في العالم يُهمل قراءة الكتاب المقدس"

قال داود النبي:

"خبأت كلامك في قلبي لكي لا أخطئ إليك" (مز 11:119)

"لأن كلمة الله حية وفعالة وأمضى من كل سيف ذي حدين وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والأمخاخ ومُميزة أفكار القلب ونياته" (عبر 12:4)

<u>خامساً : العيشة في حضرة الله والألفة معه .</u>

إذا كنت في جو الله فارتكاب الخطية يصبح أمراً مستحيلاً. تأمل يوسف البطل العظيم أن سر عظمته في قوله:

"كيف أفعل هذا الشر العظيم وأخطأ إلى الله" (تك9:39)

إنه ينظر إلى الله فيكره الخطيئة، لأنه إذ ذاك يراها في أظلم وأبشع صورها، وينظر إلى الله فيستمد منه القوة للتغلب عليها :

"جعلت الرب أمامي في كل حين لأنه عن يميني فلا أتزعزع" (مز 16(26) 8)

لم يعتبر يوسف الخطيئة ضد جسده ولا ضد زوجة سيده، ولا ضد فوطيفار ولا ضد الإنسانية فحسب، مع أنها تسيء إلى كل هؤلاء. ولكنه رآها قبل كل شيء ضد الله ولذلك يقول داود :

"إليك وحدك أخطأت والشر قدام عينك صنعت" (مز4:51)

قصة :

اعتاد شاب تقي كلما هاجمته التجربة أن يقول : **"أنا ميت أنا ميت. المسيح هو الكل في الكل الآن"** فكان العدو يفر هارباً. المسيح هو صاحب السلطة الآن فيهرب العدو من أمامك .. لتكن حياة العلو والسمو هي حياتك. ارفع نظرك إلى فوق لأن منتظري االرب يجددون قوة يرفعون أجنحة كالنسور.

الأهواء والميول ومواجهتها لدى النساك

المقدمة

تحدثنا في الفصول السابقة عن الأهواء والميول بشكل عام ولكل إنسان. ولكن في هذا الفصل نخص بالذكر جماعة المتصوفين السالكين بالزهد والنسك. الذين جاهدوا، ضد أهوائهم وميولهم، ليست الدنيئة فقط بل والحميدة أيضاً والتي تعبر عن طموحاتهم الجميلة، لأجل ملكوت السموات. هؤلاء الذين لم يكن العالم يستحقهم، ولم ينظروا إلى ملذات هذا العالم، وعاشوا بيننا وهم غرباء عن كل ما هو في العالم.

أولاً: التشبيهات الكتابية التي تعبر عن الأهواء والميول لدى بعض النساك

يكشف لنا أمير التصوف المسيحي القديس يوحنا للصليب، من خلال سياحته وتأملاته في عالم الكتاب المقدس عن بعض التشبيهات الكتابية.

1- **الماشية**

"ولا يصعد أحد معك وأيضاً لا يرى أحد في كل الجبل الغنم أيضاً والبقر لا ترعى إلى جهة ذلك الجبل" (خر 3:24).

يطلب الله من موسى في هذه الآية أن يصعد الجبل للالتقاء به، وارتقاء الجبل[6] علامة للحياة الروحية وحياة الصلاة، التي يتم فيها اللقاء والحوار بين النفس البشرية والعزة الإلهية. ويرى القديس يوحنا للصليب في هذه الآية، أن النفس المتعبدة والراغبة في اللقاء والالتقاء بالله، لابد لها من التخلي عن كل الأشياء أسفل الجبل، ويعني أيضاً التطهر والتنقي من كل الرغبات والأهواء، ماعدا رغبة الالتقاء بالله. ويرى أيضاً فيما جاء بالآية المقدسة من ذكر بعض المواشي كالغنم والبقر الطبيعة الحيوانية الموجودة داخل الإنسان، والتي يطلب التحرر منها لأجل لقاء أفضل بالله.

2- **الكلاب:**

"ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويلقى للكلاب" (مت26:15)

"لا تعطوا القدس للكلاب" (مت6:7)

قديماً كان يطلق على الوثنيين الأمم والأمم لفظ صفة للكلاب لماذا؟

لأن الأمم الوثنية تطلق العنان لشهوات الجسد، وتسعى وراء الأهواء والشهوات الحسية والمادية، والنفس التي تخضع لشهوات الجسد وتعمل على تلبية الرغبة الحسية تشبه الكلاب في مسلكها.

"ويهرون كالكلاب، ويطوفون بالمدينة وينتشرون للاستطعام، وإن لم يشبعوا يتذمرون" (مز58:15-16)

ومن خاصية عمل الكلاب التجوال والتطواف في الشوارع والانتشار في الأماكن المختلفة باحثة عن الطعام، ولا تجد إلا الفتات المتساقط والمترامي أو الملقى على قارعة الطريق، ولذا فهي لا تشبع رغم جوعها الشديد، وهكذا النفس المتعلقة بالأهواء تستمر في حالة الجوع ولا تشبع، وتفقد الشعور بالرضى في حياتها.

يقول مار اسحق السرياني:

"إن الأهواء تشبه الكلاب التي اعتادت ارتياد الملاحم لكنها تطرد بصرخة واحدة، أما إذا أهملت فهي تهجم كالأسود الضخمة".[7]

ويوجه القديس اسحق السرياني الأنظار نحو استطاعة تغلب النفس على الشهوات من الوهلة الأولى منذ ظهورها، بالجدية والالتزام وعدم التفاوض معها. إن التهاون مع الشهوة التي تبدو صغيرة وبسيطة، يعني منحها الحق في أن تكبر داخل النفس، ولا تعد كما كانت تبدو لنا صغيرة. إن الوقاية في الأمور الصغيرة تنقذ النفس من خطر جسيم. على الإنسان الروحاني أن لا يعطي فرصة لكلب جبان ليكون أسداً ضخماً يهدد أمنه واستقراره، بل عليه أن يكشف من الوهلة الأولى للكلب جبنه وضعفه.

3- **الثعالب :**

" خذوا لنا الثعالب الثعالب الصغار المفسدة الكروم لأن كرومنا قد أقلعت" (نش15:2)

جاء في تفسير الآباء الأولين لسفر نشيد الإنشاد الآتي:

"في تكراره كلمة الثعالب يعني التحذير منها إذ هي تزحف بخفة وتدخل من الثقوب الصغيرة لتفسد الكرم في بدء نموه.... بهذا تفسد كميات ضخمة من الثمار المقبلة، فمع صغرها تفسد نمو الإنسان ونضوجه".[8]

ما هي هذه الثعالب الصغيرة؟

هذه الثعالب الصغيرة قد تكون خطايا نحسبها هينة كالكذب الأبيض أو الهزل... وقد تكون أصدقاء ظرفاء أو كتباً معينة أو مكاناً معيناً... لهذا يليق بنا أن، نحفظ كل أبوابنا الداخلية مغلقة تجاه أي ثعلب صغير، ممتنعين عن كل شبه شر...

" امتنعوا عن كل شبه شر" 1تس 22:5

بمعنى آخر، الثعالبُ الصغيرة إشارةٌ للخطايا التي تبدو صغيرة ولا نحترس منها.

المعلم أوريجانوس يقول عن الثعالب الصغيرة:

"هي قوى الشياطين المضادة والشريرة التي تحطم زهور الفضائل في النفس وتبدد ثمر الإيمان خلال الأفكار الفاسدة والمفاهيم المضللة التي تبثها"[9]

ويقول أوريجانوس أيضاً:

---

[6] ارتقاء الجبل: هناك تفضل لكلمة ارتقاء الجبل عن صعود الجبل... لأن ارتقاء تعني المشقة والمجهود والتدرج خطوة وراء خطوة.

[7] اسحق السرياني، نسكيات، نقله إلى العربية الأب اسحاق عطالله بالتعاون مع معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي، المقالة الخامسة والخمسون في الأهواء، ص199.

[8] من تفسير وتأملات الآباء الأولين، نشيد الأنشاد، كنيسة ماري جرجس باسبورتنج، القمص تادرس يعقوب ملطي، ص80-81.

[9] نفس المرجع السابق، Oregano Comm on Cant 3:15

"إنه بالتأكيد في لحظة الخطية، يكون روح شرير ما حاضراً في قلب الإنسان، وهناك يعمل. إننا نسمح له بالدخول ونستقبله في داخلنا بميولنا الشريرة"[10]

يقول مرقس الناسك:

"يقدم لنا الشيطان خطايا صغيرة تبدو كأنها تافهة في أعيننا، لأنه بغير هذا لا يقدر أن يقودنا إلى الخطايا العظيمة"[11]

يرى مثلث الرحمات الأنبا يوأنس أسقف الغربية الآتي:

"نحن محتاجون للاحتراس حتى إن كنا كاملين في جهادنا، فالاحتراس فضيلة مسيحية هامة. لقد رأت الشهيدة بربيتوا في حلم سلماً كبيراً ذهبياً يصل الأرض بالسماء. كان ضيقاً بحيث لا يتسع إلا لشخص واحد. وعلى جانبيه آلات التعذيب. ومن أسفل تنين مرعب، عند الدرجات الأولى لهذا السلم، متحفز لاقتناص من يحاول الصعود للسماء وفي الحلم رفعت بربيتوا رأسها، فرأت معلمها ساتوروس saturus . وهو يصعد. وحينما وصل إلى نهاية السلم من أعلى قال لها. بربيتوا: إني في انتظارك. ولكن احذري لئلا يلتهمك التنين. حينئذ قالت بربيتوا .. باسم يسوع المسيح سأصعد، ولن أخاف التنين "وبجرأة وضعت رجلها على التنين وكأنه الدرجة الأولى من درجات السلم، ثم ابتدأت تصعد بسرعة "[12]

آيات كتابية تتحدث عن الثعالب، ولذلك هي للتأمل:

"فقال لهم شمشون: أنا بريء الآن من الفلسطينيين إذا أنزلت بهم شراً. وانطلق شمشون وقبض على ثلاث مائة ثعلب وأخذ مشاعل، فجعل الثعالب ذنباً إلى ذنب، وجعل بين كل ذنبين مشعلاً. وأوقد المشاعل وأرسلها في زرع الفلسطينيين وأحرق الحزم والزرع حتى الكروم والزيتون" (قض15:3-5)

"وكان عنده طوبيا العموني فقال: بل إن ما يبنونه، لو وثب ثعلب، لهدم سور حجارتهم " (نحميا3:35)

"فقال له يسوع أن للثعلب أوجرة، ولطيور السماء أوكاراً، وأما ابن الإنسان فليس له ما يضع عليه رأسه" (مت8:20)

"فقال لهم: اذهبوا فقولوا لهذا الثعلب: ها إني أطرد الشياطين وأجري الشفاء اليوم وغداً، وفي اليوم الثالث ينتهي أمري" (لو13:32)

4- الجراد :

لقد كان للجراد دور خطير في تاريخ العالم، وغاراته المخيفة تهدد الكثير من مناطق العالم، ومنها المنطقة التي نعيش فيها.

وكان له أهميته الكبيرة بالنسبة للعبرانيين، وكانت الضربة الثامنة التي أصابت أرض مصر في أيام موسى، هي غارة كثيفة من غاراته المدمرة، فقد قال الرب لموسى:

"مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد ليصعد على أرض مصر، ويأكل كل عشب على الأرض وجميع ثمر الشجر .. حتى لم يبق شيء أخضر ... في كل أرض مصر" (خر10:12-15)

نحن لا نريد التوقف عند الجراد كضربة ، بل نريد أن نتأمل في عمل الجراد ذاته في ذاته. لأن الجراد مفسد للزرع ومجلب للقحط إذ يبيد كل نبات أخضر.

الجراد كثير وسريع التكاثر. وهو يمسح بلسانه لكل نبت أخضر ويتصف بالشراهة. والجراد من عادته تكوين أسراب من ملايين، وقد يمتد السرب الواحد إلى 80 ميلاً حتى لتكاد تحجب وجه السماء .

" والجراد ليس له ملك ولكنه يخرج كله فرقاً " (أم30:27)

والذي يتحكم في تحركات أسراب الجراد، عادة هو اتجاه الرياح. ويلتهم الجراد النباتات بشراهة رهيبة، فقد يلتهم السرب الواحد خمسين طنا من النباتات في وجبة واحدة، فما أن تحط على منطقة خضراء، حتى تتركها بقعة جرداء.

والجراد له أربعة أطوار وذلك وفقاً ما جاء بيوئيل النبي[13].

"فضلة القمص أكلها الزحاف وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء وفضلة الغوغاء أكلها الطيار" (يو1:4)

"وأعوضكم عن السنين التي أكلها الجراد الغوغاء والطيار والقمص جيشي العظيم الذي أرسلته عليكم " (يو 2:25)

1 – فالقمص هو الجرادة في دور اليرقة عندما تخرج من البويضة وتبدأ في قرض النباتات.

2 – أما الزحاف فهو الجراد الزاحف قبل أن ينمو كراعاه.

3 – والغوغاء هو الجراد الذي نما كراعاه وأصبح نطاطاً .

4 – ثم الجراد الطيار بعد أن نمت أجنحته وهو أخطر الأطوار لأنه بها يهاجر من مكان إلى مكان.

تستخدم مجازياً وصفاً لجيش من الغزاة

"قد حلف رب الجنود بنفسه أني لأملأنك أناساً كالغوغاء فيرفعون عليك جلبة" (ار51:14)

" ارفعوا الراية في الأرض أضربوا بالبوق في الشعوب قدسوا عليها الأمم نادوا عليا ممالك أراراط ومنى وأشكنار أقيموا عليها قائداً أصعدوا الخيل كغوغاء مقشعرة" (ار51:27)

وتستخدم رمزاً لكثرة العدد

---

[10] نفس المرجع السابق Hom Num 4:3

[11] نفس المرجع السابق، مقالتان عن الناموس الروحي 94 الفيلوكاليا 1966، ص126.

[12] نيافة الأنبا يوأنس أسقف الغربية، تأملات في سفر نشيد الأنشاد.

[13] دائرة المعارف الكتابية حرق (ب.ج)، جـ2، ص526+، وللمزيد والتفاصيل ارجع إليه.

"يقطعون وعرها يقول الرب وإن يكن لا يحصى لأنهم قد كثروا أكثر من الجراد ولا عدد لهم" (ار 23:46)

" لأنهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد ودخلوا الأرض لكي يجربوها" (قض5:6)

"وكان المديانيون والعمالقة وكل بني المشرق حالين في الوادي كالجراد في الكثرة. وجمالهم لا عدد لها كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة " (قض 12:7)

يذكر الجراد كرمز للضالة

"وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق من الجبابرة فكنا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم" (عدد33:13)

"وأيضا يخافون من العالي وفي الطريق أهوال واللوز يزهر والجندب يستثقل والشهوة تبطل" (جا 5:12)

" الجالس على كرة الأرض وسكانها كالجندب الذي ينشر السموات كسرادق ويبسطها كخيمة للسكن" (اش22:40)

ومن الجراد وتسميتها ورموزها نأخذ نحن العبرة . فالجراد عبارة عن حشرة صغيرة محتقرة، يستطيع الإنسان سحقها بقدمه أو بإصبعه، هكذا الأهواء والميول وهي صغيرة وبسيطة يستطيع الإنسان التخلص منها سريعاً، وخاصة في بدايتها وهي خارجة من بويضتها مثل القنص. ويمكن للإنسان تركها حتى تكبر وتنمو وتصبح كالجراد حينما يكبر ويصير كالطيار شديد الخطورة والذي يأكل ولا يرحم.

إن النفس المستسلمة لأهوائها وشهواتها، تجعل هذه الأهواء والشهوات تكبر وتزداد وتأتي إليها بعدد وفير من الشهوات الأخرى، والتي تلتهم ما في الإنسان من صلاح ونقاء.

فالأهواء والميول أو الشهوات رغم ضعفها بالنسبة للإنسان، إلا أنها تعمل كالجراد تهجم على الإنسان كمجموعات، وتعمل لهدف واحد وبنفس واحدة لخدمة مملكة واحدة وهي الشيطان . الجراد له أسنان كالأسد، ولذا يسبب التلف الشديد في كل ما هو حي من النباتات، وما يتركه النوع الأول، لا يتركه النوع الثاني، وهكذا الثالث والرابع، مما تجعل الكرمة التي هي نفس الإنسان خربة والتينة متهشمة.

"فضلة القمص أكلها الزحاف وفضلة الزحاف أكلها الغوغاء وفضلة الغوغاء أكلها الطيار اصحوا أيها السكارى وابكوا وولولوا يا جميع شاربي الخمر على المصير لأنه أنقطع عن أفواهكم . إذ قد صعدت على أرضي أمة قوية بلا عدد أسنانها أسنان الأسد ولها أضراس اللبوة جعلت كرمتي خربة وتينتي متهشمة قد قشرتها وطرحتها فابيضت قضبانها " (يوئيل 1:4-7)

نجد أن هناك نفساً كانت تسلك بتدقيق أمام الرب. وفجأة وجدت وهي تذهب من سيئ إلى أسوأ.

كانت ممتلئة حيوية وفرحاً، ولديها ثمر حلو لمن اقترب منها، ولم تعد هكذا الآن.

ما هو السر في هذا التحول الغريب ؟ السؤال عن السبب ؟

إن هذه النفس تركت الأهواء تتسلل إليها خلسة أو أمام عينيها وتهاونت بها، ولأنها لا شيء يذكر، ولا يجذب الانتباه إليها من تفاهتها ولكن هذه الأهواء وجدت مستقرها في داخل هذه النفس، وأخذت تكبر وتطور، وتنجب بيضاً صغيراً (أهواء أخرى). وتملكت هذه الأهواء النفس، واستعادت قوتها، ونظمت قواتها أو جيشها وأخذت تهجم بكل قوتها على هذه النفس عينها. وتكمن الخطورة في أن القتال داخل النفس وليس خارجها. والنتيجة الطبيعية تكون النفس شبيهة بشجرة قضمت أوراقها واقتلعت أثمارها وتترك جافة ويابسة. إذ لا تترك إلا خشبة أو عودا يابسا في أرض يابسة. متى تمكنت الأهواء والشهوات من نفس، تكون لها مصدر إزعاج واضطراب ورعب، وتسلب منها الراحة والاستقرار.

"كمنظر الخيل منظره. ومثل الأفراس يركضون. كصريف المركبات على رؤوس الجبال يثبون. كزئير لهيب نار تأكل قشاً. كقوم أقوياء مصطفين للقتال. منه ترتعد الشعوب كل الوجوه تجمع حمرة يجرون كأبطال. يصعدون السور كرجال الحرب ويمشون كل واحد في طريقه ولا يغيرون سبلهم. ولا يزاحم بعضهم بعضاً يمشون كل واحد في سبيله وبين الأسلحة يقعون ولا ينكسرون. يتراكضون في المدينة يجرون على السور يصعدون البيوت يدخلون من الكوى كاللصوص. قدامه ترقو الأرض وترتجف السماء الشمس والقمر يظلمان. والنجوم تحجز لمعانها" (يو2:4-10)

يصف هذا النص الرعب والقوة من ناحية الجراد المدرب عسكرياً على هذا وبين النفوس اللامعة، التي تهاونت فإذ طفئت كالشمس تساقطت كالنجوم. والفزع والرعب من صوت الخيل الذي يحل على كل الأرض، والسماء ترتجف من رؤيتها فزعا وخوفا وضياع أهل الأرض "أهل العالم" لأنها تريد خلاصهم، لا خلاص من هذا الموقف إلا بالتوبة والرجوع والتخلص من الأهواء والميول الرديئة.

" اصحوا أيها السكارى" (يوئيل5:1)

دعوة الاستيقاظ بمعنى اليقظة الروحية بالسهر والاستعداد

" قدسوا صوماً. نادوا باعتكاف. أجمعوا الشيوخ وجميع سكان الأرض إلى بيت الرب إلهكم واصرخوا إلى الرب" (يو1:14)

تكريس الصوم والاعتكاف بمعنى الرجوع لحالة الزهد والتنسك والخشوع أمام الرب. ويعني التواضع والاعتراف بالتهاون والخطيئة.

"ولكن الآن يقول الرب أرجعوا إليّ بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح" (يو2:12)

الرجوع لله وتسليم القلب لله، والتسليم لابد أن يكون كليةً ومصحوباً بالبكاء والنوح، وفي حالة صوم كعلامة للندامة وللتوبة:

"وأعوضكم عن السنين التي أكلها الجراد والغوغاء والطيار والقمص جيشي العظيم الذي أرسلته عليكم" (يو2:25)

5- النار واللهب:

"وأخذ ابنا هارون وأبيهوا كل منهم مجمرته وجعلا فيهما ناراً غريبة ووضعا عليهما بخوراً وقربا أمام الرب ناراً غريبة لم يأمرهما بها. فخرجت ناراً من عند الرب وأكلتهما فماتا أمام الرب" (أخ 10:1-2)

في هذا الجزء الكتابي الذي يتحدث عن النار، التي قدماها ابنا هارون في العبادة، وهي ليست النار المخصصة للعبادة أثناء رفع البخور. ومن هنا نفهم المعنى الرمزي لهذا النص، أن النار تشير إلى الميول والأهواء والشهوات الغريبة في كيان الإنسان. أن هذه النار التي استخدمها ابنا هارون في العبادة لم تكن وفق مشيئة الله أو حسب إرادته وطلبه. وكثيرة هي الرغبات والاشتياقات الموجودة ليست وفق إرادة الله وليست بحسب مشيئته فهي دخيلة وغريبة ولا تمجد الله.

لقد صعدا ابنا هارون للعبادة، وهما يحملان في باطنهما ما لا يرضى عنه الله. والنفس التي يريد أن ترتقي جبل الله المقدس وتصعد درج البخور، لابد لها من التطهر من كل ما هو غريب وبعيد عن روح العبادة،وأن تحمل في كيانها ناراً مقدسة وأشواقا طاهرة نحو الله.

يجب أن تشتعل نار الحب الإلهي في داخل النفس، ولا تسمح بمتعلقات الدنيا الباطلة إطفاء النار الإلهية في الداخل.

إنها نار شهوة سريعة الاشتعال، ولكنها سريعة الانطفاء، ومتى التهبت نار الشهوة داخل الإنسان فهي تؤذيه وتلتهمه التهاماً كابني هارون.

كثيرون الذين تفحموا بنار الشهوة. ولم يعد لهم الوجود الروحي والإنساني، وكثيرون الذين نالهم الأذى والضررُ بالتشويه نتيجة لحروق الشهوة والأهواء .

كيفية التحرر من الأهواء والشهوات عند النساك والزهاد

المقدمة:

حقيقة: إن أسلوب الحياة لدى النساك والزهاد يتميز عن غيرها من المؤمنين. وكذلك يختلف أسلوب المعالجة للأهواء عن غيرهم من المؤمنين.

إن أكثر ما يميز حياة الناسك والزاهد سعيه المستمر للاتحاد الكلي بشخص المسيح، عن طريق ما يسمى بالفناء والذوبان في شخص المسيح.

يؤمن الزاهد والناسك بضرورة اختفاء الذات نهائياً وكلياً، لتتجلى حياة المسيح بأكثر قوة ووضوحا. فلا يخشوا على ذواتهم من شخص المسيح.

إن شخص المسيح هو الهدف والغرض، الذي تصبو إليه نفس الناسك والزاهد. إن هؤلاء لعلى ثقة من حب المسيح، هذا الحبيب الذي يحرص كل الحرص لحفظ كيان الآخر.

"مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ " (غلا2:20)

يعني القديس بولس من خلال هذه الآية أنه حيّ، ولكن ليس هو الحي بل المسيح هو الحي في كيانه. وهي تعني موت بولس عن ذاته، وهذا الموت نفسه هو الذي يمنحه حياة المسيح، ونستطيع أن نقول بإيجاز: إن موت الأنا والذات يسمح للمسيح أن يحيا في هذا الكيان المتفرع أو الفارغ من الذات.

إن الحب البشري يتخوف فيه الواحد تجاه الآخر، لئلا يذوب ويتلاشى ويفقد كيانه، ولذا يكون الإنسان حريصاً على وضع حدود معينة ليضمن بها ذاته وكرامته. ولكن في علاقة الناسك بالمسيح لا يوجد هذا التخوف، لأن المسيح يحفظ كيان محبوبه، وخاصة كلما أفرغ هذا المحبوب ذاته من ذاته. إن عملية إفراغ الذات تعني المزيد من الثقة في المسيح. إن المكسب الحقيقي في نهاية الأمر للذي يملك القدرة على إفراغ ذاته كلية، وحتى الموت، لأن المسيح يرجع إليه ذاته. الذات الخاصة به، مع كيان المسيح ذاته.

منهجية الأسلوب لدى المتصوفين والنساك:

تتسم حياة هؤلاء النساك والزهاد بالبساطة والتلقائية. ولا نعني بالبساطة والتلقائية أن تكون حياتهم عشوائية. لأننا نجد أن لدى هؤلاء منهجية ذهنية ومعيشية أكثر من سائر البشر.

إن منهجهم المعيشي لا يخلو من القسوة أحياناً، لأنهم يجدون السعي في مقاومة الأهواء والميول حتى المقدسة منها. لأنهم يؤمنون أنه بمقدار التحرر منها بقدر يستنيروا روحياً ويصفوا الذهن والقلب.

بالنسبة لهؤلاء، يكون الهدف واضحاً، وهو الوصول لاتحاد أعمق بشخص المسيح، بمعنى أن يكون لااتحاد وثيقاً لا يقبل الانفصال.

نجد لدى النساك والزهاد، أسلوباً لمحاربة الشهوات والأهواء، لا نستطيع أن نطالب به أو نفرضه على سائر المؤمنين. فالجميع مدعوّو للوحدة مع شخص المسيح، ولكن غير لا يطلب من الجميع أن يسلكوا بنفس الأسلوب .

حركة الزهاد والنساك داخل المسيحية هي إقتداء وأتباعاً للمسيح.

عاش السيد المسيح الحياة بمعنى الكلمة، مشاركاً الناس في كل شيء ما خلا الخطية وحدها. ولكن لا يمنع أن يكون هناك جانب من جوانب حياة الناس المتعددة الأوجه مصدراً للغنى لبعض الناس أكثر من غيرها، والزهاد والنساك كان الطابع النسكي في حياة المسيح مصدر إشعاع وغنى لهم، فأرادوا الاقتداء به في زهده ونسكه.

" فسمعه التلميذان يتكلم فتبعا يسوع. فالتفت يسوع ونظرهما يتبعان فقال لهما ماذا تطلبان. فقالا ربي الذي تفسيره يا معلم أين تمكث. فقال لهما تعاليا وانظرا . فأتيا ونظرا أين كان يمكث ومكثا عنده ذلك اليوم." (يو1:37-39)

لقد رأى السيد المسيح رغبة التلميذين في اتباعه، فوجه إليهما الدعوة لمشاهدة حياته الداخلية المعيشية، ولم يكتف بالكلمة. فالسيد المسيح يدعو اتباعه للمكوث والإقامة والمرافقة له في مسيرته خطوة وراء خطوة.

"وأقام اثني عشر ليكونوا معه وليرسلهم ليكرزوا " (مر3:14)

والسيد المسيح بنفسه يعلن لتلميذ أراد أن يتبعه قائلاً:

"فقال له يسوع للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكاراً وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه" (لو9:58)

إن هذه الآية في غاية الوضوح. فليس للمسيح مكان يجلس فيه أو مكان يسند إليه رأسه. فهو متجرد ومتخلي لأن ليس له شيئ ولا يملك شيئاً، ولم يستقر في مكان.

النساك والزهاد يسيرون في حياتهم بنفس هذا الأسلوب المتخذ من المسيح رأساً.

أين شهوة حب المال، الملكية، السلطة والوضع الاجتماعي، أين الحماية والأمان والضمان كسائر البشر ؟

الناسك والزاهد وحده الذي يملك هذه المقدرة: أن يتخلى عن كل ضمانات البشر التي تحقق له المعيشة الكريمة كإنسان، ولأنه يضع كل الضمانات في شخص المسيح وعلى مثال المسيح.

"الذي إذا كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله لكنه أخلى نفسه أخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس. وإذ وجد في الهيئة كانسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب. لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل أسم" (فيل 2:6-9)

في هذه الآيات نجد أن السيد المسيح يفرغ ذاته لأن الفعل اليوناني konsis (كونزيس) يعني الإفراغ. وكلمة إفراغ معناها أقوى من معنى كلمة تخل أو تنازل أو تجرد .

فالمسيح أفرغ ذاته **"كيانه"** وصار إنساناً مثل سائر البشر، وعاش التواضع والطاعة حتى الموت الذي يعد قمة الإفراغ الذاتي.

وفي لحظة الموت أو الإفراغ النهائي أعطى له اسماً خاصاً يفوق كل اسم. حينما نفرغ كل شيء ولم يعد لنا أي شيء، يصبح لنا الله كل شيء. وحينما نكون كلا شيء أو لا شيء نمنح كياناً خاصاً به نكون كل شيء وفوق كل شيء .

إن عملية الإفراغ التي قام بها المسيح، لم تكن مثل عملية التخلي عن المسكن والطعام والأصدقاء، بل إفراغ كينوني وذاتي لشخصه، ولذا فهي أصعب في قبولها فكرياً وتنفيذها عملياً مما نتصور، فلا نستعجب حينما نجد عند النساك والزهاد المتصوفين فكرة الفناء والذوبان والتلاشي في المسيح، ليكون المسيح الكل في الكل .

العمل على إماتة اللذة وتوجيه الأهواء :

ايستطيع لناسك والمتصوف لأجل حبه للمسيح ويقدر حب المسيح له، العدولَ عن اللذة وإماتة النزوة والتغلب على الأهواء والشهوات عن طريق الإماتة والتضحية اليومية. **فلابد للراهب أو للناسك من اكتشاف أهوائه أولاً والعمل على تنقيتها وتطهيرها**

ويقول الأنبا بيمن:

" نحن لسنا قتلة الجسد بل قتلة الشهوات"[14]

يجب التمييز بين الجسد وشهوات الجسد . فالناسك يحترم جسده، ولكنه لا يقبل شهواته. ولذا هو يجاهد ويقاوم الشهوات، ويعمل على إماتتها.

قال الأب ماتوي[15]:

"الشيطان لا يعرف بأي هوى تستسلم النفس، ولكنه يبزر دون أن يعرف إن كان سيجني أفكار زنى، التلب، وسائر الأهواء الأخرى. وحيثما يرى ميل النفس يقدم لها بزار الشر "

وهنا تجب النصيحة: على الناسك أن يكتشف في وقت مبكر بذور الهوى والشر لاقتلاعها قبل النمو.

ويرى القديس **بالاماس،** النفس الشهوانية تلد حب المال، والنفس العاقلة تلد حب المجد والشهرة. النفس الغضبية تنجب حب البطن آفة وأم لها بنات كثيرات.

يقول الأب يوحنا :

"الإنسان ضائع بين عقل وعاطفة وشهوات ... المرض الروحي يضرب القوى العقلية بالكبرياء . التسامح، حب المجد، طلب الشهرة ... الخ كلها أمراض تخدر العقل وتأسره. الملذات الجسدية تستبد بالقوى العشقية والاشتهائية. أما الطاقة الغضبية فيضربها حب الشرور والغضب والبغضاء. استخدام قوى النفس بخلاف نواميسها يحول دون تحقيق الدعوة وبلوغ الله... الإفراط والمبالغة في إجهاد المعدة يؤول إلى مرضها، بيولوجياً. الارتماء في الموبقات يلحق الضرر يفيد بيولوجية الجسم. العيش في عدم النقاوة، يجعلنا بعيدين عن الله. طلب الملذات يؤذينا على كل صعيد. المرض يأتي إلينا بفعل سوّ الاستخدام. صارت الأهواء تولد لنا الآفات والأمراض بفعل استخدامها على نحو خاطئ بالسقوط فقدت حسن توجهها. فبدل أن تكون أجنحة ترفعنا إلى الله، أخذت توجهنا إلى آلهة عديدة. وفي سعينا إلى الشفاء، لا غيث الأهواء بل نرتقي بها ونهذبها. ليست الحياة الروحية دعوة إلى قتل الأهواء. هذا خطأ في الحياة الروحية، نهذب الأهواء ولا نقتلها نتعهدها ولا نميتها. إماتة الأهواء هي ضرب من الانتحار. أنها لون من ألوان القتل. وهذا غير معقول" [16]

ثانياً: ضرورة التجديد على مستوى الفكر السلوكي.

"وإنما أقول اسلكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد ... ولكن الذين هم المسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات إن كنا نعيش بالروح فلنسلك أيضاً بحسب الروح. لا نكن معجبين نغاضب بعضنا بعضاً ونحسد بعضنا بعضاً." (غلا :16-6)

في هذا النص نجد أن هناك دعوة وتوجيه للسلوك بحسب الروح. والسلوك بالروح يفترض الاشتراك مع المسيح في صلب الجسد، بمعنى عدم الاستجابة للرغبات والأهواء السفلى للنفس.

ولا يقصد القديس بولس بتعبير الجسد كلمة الجسد بالمعنى الحصري أو المادي، ولكنه يقصد بتعبير الجسد هو تصرف أو سلوك الإنسان بعيداً عن الله.

والسلوك بالروح يعني وضع الإنسان الكلي والشامل حيث جسد، ونفس، وروح تحت سيادة روح الله.

والتصادم الموجود ليس هو تصادم بين الجسد والروح كعنصرين متضادين في التركيب الإنساني، بل هو التصادم الموجود بين الإنسان الكلي بعيداً عن الله والإنسان الكلي قريباً من الله. ويعيش الإنسان على مستوى هذا التصادم. حيث توجد لديه رغبات ذاتية شخصية قد لا توافق إرادة الله بالنسبة له، هنا تحدث عملية التضاد بين إرادة الإنسان وإرادة الله، ومن هذا التضاد ينتج الصليب وعلى الصليب توضع الذات بما فيها من رغبات وأهواء وإرادة.

"فأقول هذا واشهد في الرب أن لا تسلكوا فيما بعد كما يسلك سائر الأمم أيضاً ببطل ذهنهم. إذ هم مظلموا الفكر ومتجنبون عن حياة الله لسبب الجهل الذي فيهم بسبب غلاظة قلوبهم الذين هم قد فقدوا الحس وأسلموا نفوسهم للدعارة ليعملوا كل نجاسة في الطمع" (أف4:17-19)

---

[14] الأنبا بيمن، قال شيخ، ص101.
[15] الأب مانوي، من أقوال الآباء الشيوخ، رقم 2، ص193.
[16] اليقظة والصلاة لواضعه الكاهن يوحنا، ترجمة الأب منيف حمص، 1991، ص49.

في هذا الجزء من النص يكشف القديس بولس عن سلوك الأمم الباطل، والذي يعبر عن الجهل، ويقودهم للباطل والظلمة، وبالتالي للابتعاد عن الله. وفي الابتعاد عن الله يفقد الإنسان الحس الروحي والاستشعار الروحي والاستنارة الذهنية والنقاوة الداخلية والباطنية. فالابتعاد عن الله يدفع الإنسان في طريق الجسد والانغماس في الشهوات والأهواء، التي تتجلى في الدعارة والنجاسة والطمع.

"وأما أنتم فلم تتعلموا المسيح هكذا إن كنتم قد سمعتم وعملتم فيه كما هو حق في يسوع. أن تخلعوا من جهة التصرف السابق الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور. وتتجددوا بروح ذهنكم. وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق." (أف4:20- 24)

يرى النساك والزهاد في آيات هذا النص، أنها تخاطبهم على وجه الخصوص وخاصة يروا في أسلوب بولس **" أما أنتم "** وكأنه يخاطبهم شخصياً. فالناسك والزاهد يرى ذاته تلميذاً شخصياً للمسيح. وتعلموا منه بالذات، وفي تعليم المسيح دعوة إلى تجديد الحياة المستمر. ولا يكون هناك تجديد دون أن يخلع الإنسان ما هو عتيق في داخله. لكي يرتدي الإنسان الملابس الجديدة لابد له من خلع الملابس العتيقة.

إن قوام حركة النسك والزهد تقوم أساساً على التطهير والتحرير اليومي، لكي يكون الناسك أو الزاهد شخصاً مغايراً كل يوم عن سابقه، بمعنى أنه يصبح جديداً، وبالتالي يمزق الثوب القديم ليكون أكثر لمعاناً في ثوبه الجديد.

النسك والزهد هي دعوة خاصة جداً لأجل السلوك بحسب الروح:

"فليس بعد الآن من حكم على الذين هم في يسوع المسيح. لأن شريعة الروح الذي يهب الحياة في يسوع المسيح قد حررتني من شريعة الخطية والموت. فالذي لم تستطيعه الشريعة، والجسد قد أعياها، حققه الله بإرسال ابنه في جسد يشبه جسدنا الخاطئ، كفارة للخطية. فحكم على الخطية في الجسد ليتم فينا ما تقتضيه الشريعة من البر نحن الذين لا يسلكون سبل الجسد، بل سبل الروح. فالذين يحبون بحسب الجسد ينزعون إلى ما هو للجسد، والذين يحبون بحسب الروح ينزعون إلى ما هو للروح . فالجسد ينزع إلى الموت وأما الروح فينزع إلى الحياة والسلام. ونزوع الجسد عداوة لله فلا يخضع لشريعة الله، بل لا يستطيع ذلك. والذين يحيون في الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله. أما أنتم فلستم تحيون في الجسد بل في الروح، لأن روح الله حال فيكم. ومن لم يكن فيه روح المسيح فما هو من خاصته. وإذا كان المسيح فيكم فالجسد ميت بسبب من الخطية ولكن الروح حياة بسبب من البر" (رو 8:1-10)

هذا النص بدون تعليق هو للتأمل والتفكير والاختيار الصعب بين الموت والحياة.

ثالثاً :بالمسيح، يكون الإنسان جديداً

"لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع. لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح." (غلا 3:26-27)

في المفهوم المسيحي التقليدي، أن لا يتم ارتداء المسيح كرداء أو أن نلبس المسيح إلا بعد المعمودية. والمعمودية موت ودفن الإنسان في الماء ليولد إنساناً جديداً أو ليقوم قيامة جديدة. لابد من موت الذات العتيقة بكل الأهواء والميول والنزوات الموجودة فيها، لكي يقوم الإنسان مجدداً في المسيح يسوع، وهو يملك ميولا وأشواقا سامية.

إن حركة الموت والقيامة على صعيد حياة النسك والزهد، تتم يومياً في حياة هؤلاء النساك والزهاد. لأنهم يريدون أن يكون المسيح هو الكل في الكل في حياتهم، ويملأ كل جزء في كيانهم، والرغبة الأساسية لدى هؤلاء النساك والزهاد الوصول بعلاقتهم بالمسيح كعلاقة المسيح بالآب.

"طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله" (يو 4:34)

إن السيد المسيح شأنه شأن كل إنسان لديه رغبة وإرادة ومشيئة خاصة به، ولكنه أخضع ذاته كلية للآب السماوي. موحداً ذاته بذات الآب، ولم يفعل المسيح فعلاً أو عملاً بمعزل عن إرادة الآب. وهكذا تتولد الرغبة لدى النساك والزهاد في توحيد ذاتهم بذات الابن، لتصبح حياتهم مطابقة لحياة الابن. إن الغريب في حياة هؤلاء المجاهدين في نسكهم وتصوفهم ضد الخطيئة حتى الدم، كما قال القديس بولس، أنهم يصلون إلى الذروة التي فيها يفقدون الإحساس أو الاستشعار بالذات أو العالم، وإذا جاز لي التعبير يمكن القول: إن هؤلاء يصبحون روحاً بلا جسد أو جسدا مروحن أو روحا متجسدة عديمة النزوات والنزعات الجسدية.

قال الأنبا بيمن: "إن أدوات النفس هي أن يرمي الإنسان نفسه أمام الله ولا يعتبر نفسه البتة وأن يهمل مشيئته"

"الشبع الجسدي ممقوت أمام الرب "[17]

قصة من آباء البرية:

هذه القصة نافعة في التميز الروحي في الحياة النسكية، إذا كان هذا الإنسان يسلك حسب الجسد أم حسب الروح.

"قالوا عن الشيخ أنه عاش 50 سنة دون أن يأكل خبزاً أو يشرب خمراً. وكان يقول : لقد قتلت الزنى وحب الفضة والمجد الفارغ. ولما سمع الأب إبراهيم أنه قال هذا، جاء إليه وقال له أنت قلت هذا الكلام؟ قال له الشيخ : نعم . فقال له الأب إبراهيم : هب أنك دخلت قلايتك ووجدت على البساط امرأة، هل تقدر أن تفكر أنها ليست امرأة؟ قال : كلا. إنما أحارب بفكري لئلا ألمسها. فقال له الأب إبراهيم : لم تقتله، فالهوى مازال حياً فيك، إنما قد قيد. وأيضاً إذا كنت تمشي، وفي الطريق صادفت ذهباً، هل يستطيع عقلك أن يعتبر الذهب كالخزف؟ أجاب الشيخ: كلا إلا إنني أحارب بفكري لئلا أخذه. فقال له الأب إبراهيم : إذن لا يزال الهوى حياً فيك، لكنه قد قيد. ثم قال له الأب إبراهيم : افترض أنك سمعت عن أخوين أحدهم يحبك والآخر يمقتك ويفتري عليك. وإذا حدث أن جاء هذان إليك هل تعاملهما بالمثل؟ قال كلا، إنما أحارب بفكري كي أحسن إلى الذي يمقتني وأعامله كالذي يحبني. أجاب الأب إبراهيم : إذاً، الأهواء ما تزال حية، إلا أنها قد لجمت عند القديسين"[18]

فالناسك والزاهد يعمل بكل جهده على أن يتحرر من الأهواء الباطنية، بل وأن يميت الحواس الخارجية وكأنه لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم ولا يميز، لأنه في حالة موت عن العالم والمادة وفي حالة حياة بالروح من ناحية أخرى.

القديسة تريزا للطفل ليسوع تقول:

"إن الله يعطي النعمة الأولى التي تشجع الإنسان على أن يقهر نفسه، وعلى الإنسان أن يعمل بجهد وبأس لتخفيف هذا الغرض ومثال على ذلك يهوديت التي عملت ببأس الرجال. العمل ببأس يقوي القلب فيسير من نصر لنصر"

وتقول القديسة تريزا ليسوع الطفل عن إنكار الذات:

"اليوم الذي لم أطلب فيه نفسي أبداً، أحيا أهنأ حياة يشاهدها الإنسان".

---

[17] الأنبا بيمن، أقوال الآباء الشيوخ، ص224.

[18] الأب إبراهيم، أقوال الآباء الشيوخ، ص76.

وتكمل لنا القديسة تريزا فتقص عن الكيفية التي تقهر الذات وتساعدها على الإنكار في الحياة.

تقول القديسة تريزا ليسوع الطفل :

"تجدين في النزهة أكثر مما تجدين في غيرها مناسبة لممارسة الفضيلة إذا أردت أن تصيبي منها فائدة كبرى. فلا تذهبي إليها بقصد أن تتنزهي أنت بل بقصد أن تهيئي التنزه للغير. تجردي فيها تجرداً تاماً، إذا كنت تقصين على إحدى أخواتك حكاية تتخيلينها جديرة بأن تثير الاهتمام، فقاطعتك أخنك لتقص عليك حكاية أخرى وإن كانت هذه الحكاية لا تثير اهتمامك على الإطلاق لا تحاولي أن تعودي إلى حديثك الأول. فإذا فعلت خرجت من النزهة بسلام داخلي عظيم مكتسبة قوة جديدة لممارسة الفضيلة، لأنك تكونين قد طلبتني لا أن ترضي نفسك، بل أن تجلبي السرور للغير.... فيا حبذا لو علم الإنسان ما يكسب إذ ينكر النفس في كل شيء".

لا نستعجب أن نسمع أو نقرأ هذه الكلمات من القديسة تريزا الشابة أو الفتاة، التي تمثل بني جنسها الذي تتهمه بالميوعة أو تظن بأن جنس البنات أو السيدات ليس لهم في حياة النسك أو الزهد، فنحن أمام مقولة لقديسة صغيرة ارتضت أن تعيش حياتها مع المسيح بأسلوب بسيط دون تعقيد، ولكنها أظهرت ببساطة شديدة روح النسك والزهد وتفوقها على أقرانها بل وعلى بعض جنس الرجال في هذا المضمار.

رابعاً: العمل عكس الأهواء والميول، والبحث عن المشقات والمتاعب

لكي يتحرر الناسك أو العابد يأتي بفعل أو عمل عكس أهوائه ورغبته. فمن الطبيعي لدى البشر البحث والسعي إلى ما هو أيسر، ولذا نجد أن الناسك والزاهد يبحث ويسعى إلى ما هو أعسر. طبيعة البشر السعي والبحث عن كل ما هو لذيذ المذاق وما يروق للمزاج، ولكن النساك والزهاد يتخذون اتجاهاً في بحثهم بغرض قهر الذات والتحرر من الأهواء والرغبات .

فالناسك والزاهد لا يبحث لنفسه عن الراحة أو التغذية أو إثبات الكيان والوجود في الحياة، فهو يسعى أن يكون عدماً، ومن هنا يكمن المعنى الحقيقي للحياة التي يتوخاها الناسك والزاهد .

إن الناسك والزاهد هو بمثابة الروح التي تتحرر وتتعرى من كل المتعلقات والتي تهيم في هذا العالم، ولا تجد مستقرها إلا في شخص المسيح .

من حياة القديس الأنبا آبرام أسقف الفيوم توفي عام 1914م

" اشتهت نفسه ذات مرة حماماً محمراً " فقال لتلميذه أن يحضر له حماماً محمراً فأحضر التلميذ الحمام وهو مندهشاً لأن القديس لم يطلب مثل هذا الطلب طوال حياته .. وقدم له الحمام.. فنظر إليه وصلى.. وقال لتلميذه : خذه يا رزق وأحضره باكراً .. أخذه رزق متعجباً . وكرر الأمر في اليوم الثاني والثالث حتى أنتن الحمام .. وفي كل مرة يحضره يصلي ويقول لتلميذه خذه يا رزق. فسد الحمام وأنتن .. وطلبه في اليوم الرابع فقال له رزق .. يا أبي قد أنتن ورائحته لا تطاق.. قال له : هات الحمام يا رزق لكي تأكل النفس ما اشتهت".[19]

إن تصرف أو سلوك الأنبا إبرام يعبر عن المسيرة في طريق النسك.

ليست هذه المسيرة في طريق النسك سهلة، وليست مستحيلة أيضاً، وفي تصرف الأنبا إبرام تحدث عملية مواجهة للذات حتى تدرك مقدار ما تشتهيه من عفن ونتانة. ولهذا الموقف الصارم والجاد مع النفس، تفقد النفس كل رغبة وكل شهوة أو لذة في مشتهيات هذا العالم .

من نصائح القديس يوحنا للصليب

" صحيح أن الإرشادات التالية التي تتناول طريقة التغلب على ميولنا هي في الواقع مختصرة وقليلة العدد، لكنها في رأي مفيدة وفعالة بقدر ما هي مختصرة، بحيث أن من يطبقها بإخلاص لله لا يحتاج إلى غيرها لأنها تشمل كل ما عداها من النصائح مجتمعة. فأولاً لابد أن تتوفر في النفس رغبة مستمرة في الإقتداء بالسيد المسيح في كل شيء، متمثلة به في حياته التي يجب أن تدرسها جيداً حتى تستطيع الإقتداء به في كل شيء والتصرف في كل شيء كما كان يتصرف هو. وثانياً، يجب، لتحقيق ذلك ومهما عُرض للحواس في إشباع الميول، من لذة لا تكون خالصة لله ولمجده، العدول عن هذه اللذة وإماتتها من أجل حب السيد المسيح، الذي لم يجد طوال حياته في هذه الدنيا أي لذة أو أية رغبة غير عمل إرادة أبيه قائلاً أن هذا هو غذاءه وطعامه. وأضرب لكم مثلاً على ذلك: إذا عرضت لي مناسبة للاستماع بلذة إلى أشياء لا تهم خدمة الرب ومجده وجب عليّ الامتناع عن الجري وراء تلك اللذة بل وعن سماع هذه الأشياء كلية. وإذا شعرت بلذة في النظر إلى هذه الأشياء، وكذلك الأمر بالنسبة للأحاديث الأخرى التي تعرض. ولابد إذن من إماتة كافة حواسنا كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، أما إذا لم نستطعه، فيكفي ألا نتذوقه إذا عرض لنا، وبهذه الطريقة نصل إلى إماتة هذه االلذات والحواس وإلى إخمادها، كما لو كنا في إظلام تام وبهما أيضاً يمكن تحقيق تقدماً كبيراً في فترة وجيزة...فلابد إذن أن نسعى لا إلى ما هو أيسر، بل إلى ما هو أعسر، لا إلى ما هو لذيذ المذاق، بل إلى ما لا طعم له، لا إلى ما يعجبنا بل إلى ما لا يعجبنا، لا إلى ما يجلب لنا الراحة، بل إلى ما يجلب لنا التعب، لا إلى ما يجلب لنا التعزية، بل إلى ما يبعدها عنا، لا إلى ما هو أكثر، بل إلى ما هو أقل، لا إلى ما هو مرتفع وثمين، بل إلى ما يبعدها عنا، لا إلى إرادة شيء ما، بل إلى عدم إرادة شيء على الإطلاق، لا إلى ما هو أفضل في الأشياء الدنيوية، بل إلى ما هو أسوأ وإلى الرغبة في الدخول محبة في السيد المسيح في تجرد كامل وعدول تام عن كل ما هو موجود في هذا العالم... للوصول إلى تذوق كل شيء لا ترغب في تذوق أي شيء، ولتملك كل شيء، لا ترغب في تملك أي شيء، ولتصبح كل شيء، لا ترغب في أن تكون أي شيء، ولمعرفة كل شيء، لا تود معرفة أي شيء، وللوصول إلى ما لا تحب، لا بد من أن تمر بما لا تحب. وللوصول إلى ما لا تعرف، لابد من أن تمر بما لا تعرف، وللوصول إلى ما لا تملك، لابد من أن تمر بما لا تملك، وللوصول إلى ما ليس فيك، لا بد من أن تمر بما ليس فيك. الطريقة الواجب اتباعها حتى لا نعوق كل شيء: عندما تتوقف عند شيء، عليك أن تكف عن الاستسلام لكل شيء، إذ للوصول تماماً إلى من هو الكل، فعليك أن تنكر نفسك كلية في كل شيء، وعندما تصل إلى ما تملك من هو كل شيء، عليك أن تملك دون طلب أي شيء، لأنك إذا أردت أن تملك شيئاً مع من هو كل شيء، فإن كنزك لن يكون خالصاً في الله. وعندما تصل النفس الروحانية إلى هذه الحالة من التجرد تجد فيها السكينة والراحة، لأنها وهي لا تشتهي شيئاً لن يتعبها شيء في طريق الصعود إلى أعلي، ولا شيء يجذبها إلى أسفل لأنها تقف في الوسط في تواضعها لأنها لو اشتهت أي شيء لكان ذلك مسبباً لها التعب كل التعب"[20]

الأهواء في فكر القديس يوحنا للصليب: إنها أفعال "النوازع الحسية" (التي تُسمي أيضاً شهوات) وهي تدفعنا إلى ما يلذّ لحواسنا، مثل الرائحة العطرة والموسيقى الناعمة،ألخ... كما أنها تُبعدنا عمّا تَنفُرُ منه حواسُّنا، مثل الرائحة الكريهة والضجّة الصاخبة، الخ... فالأهواء تظهر فقط حينما نشعر بالأحاسيس اللذيذة أو المزعجة في داخلنا، إن بواسطة الحواسّ الخارجية أو حين تَجعلنا الحواسُّ الباطنية نتذكّرها. تَنتج من جراء ذلك حَصيلةٌ، في غاية الأهمية، يستفيد منها كثيراً قديسُنا وهي أننا بمراقبة مَداركِنا الحسية نستطيع أن نتحكّم بأهوائنا.

---

[19] القس صرابامون رياض، إيبارشية الفيوم، كنيسة الشهيد ماري جرجس، الأنبا إبرآم، تطبيقات المنهج النسكي، ص93.

[20] يوحنا للصليب (القديس) إرتقاء جبل الكرمل، مطبوعات رسالة القديسة تريزا ليسوع الطفل شبرا – مصر 1990 1 ك 2:12-13 ص 62-65

بينما يبقي العقل، لدى إدراكه الشيء، متميزاً عن المُدرك الذي يتَّحد به فقط "قصداً"، بواسطة الفكرة المجردة عنه، فان الإرادة، عندما تحب شيئاً ما، تتحد أو تنزع إلى الاتحاد حقيقياً بذاك الشيء المحبوب. لذلك نقول: إن الحب ينزعُ إلى توحيد المُحب بحبيبه.

وبينما العقل، في إدراكه الشيء، يتمثله في ذاته، أي يجعله شبيهاً بذاته، ويجرَّد الشيء الذي يعقله، فان الإرادة، عندما تحبُّ الشيء، يتمثلها الشيءُ المحبوب وهو الذي يجعلها شبيهة به. لذلك نقول: إن الحبّ يجعل المُحب شبيهاً بحبيبه، إذ يُحَوِّلُه إلى ذاته.

خصائص الحب هذه، التي من شأنها أن توحِّد المُحب بحبيبه وأن تحوِّله إليه، هي أساس تعليم القديس يوحنا الصليب الروحيّ، وهو يُطبقها بدقة متناهية إن في تحقيق تجرد النفس أو في اتحادها بالله.

القواعد الثلاث التي تَحكم تفاعل الملكات المختلفة فيما بينها أي الحواسّ، والأهواء، والعقل، والذاكرة، والإرادة، في الأفعال الحسية للإدراك والنزوع.

القاعدة الأولى "لا يدخل أيُّ شيءٍ إلى العقل، قبل أن يعبر الحواس. إن عقلنا في البدء، خال تماماً، بمثابة "الصفحة البيضاء" التي لم يُكتب عليها شيء. فالأعمى منذ ولادته لا يمكنه أن يكوِّنَ أيَّ فكرة عن اللون، إذ لم ير قط، بحواسه، شيئا مُلوناً. لذلك نقول في الحواس: إنها "أبواب النفس".

القاعدة الثانية "لا يُرادُ شيءٌ قبل أن يُدرك أولاً". كي تستطيع الإرادة أن تريد، أي أن تحب، موضوعاً ما، لا بد أن يُقدِّم إليها العقل هذا الموضوع أولاً. فإذا وُجد كنزٌ ما في حقلٍ، ولم أدربه، فمن الواضح أني لا أستطيع أن أبتغيه. بهذا المعني، نقول: إن الإرادة تخضع للعقل. من جهة أخرى، تستطيع الإرادة أن تحوُل دون إدراك الشيء أو أن تُقرره. فإذا لم تُركز الإرادة العقل ولم توجهه إلى معرفة الشيء كقراءة كتاب مثلاً، فلا يمكن للعقل أن يدرك ذاك الشيء. بهذا المعني، يجب القول: إن العقل يخضع للإرادة.

القاعدة الثالثة "الأهواء تُؤَثِّر في العقل كما في الإرادة". الأهواء كما نعلم، هي ميول عمياء؛ إذا ما أثارتها الأحاسيس، رافقت دوماً أو غالباً أفعال العقل والإرادة. فينتج عن ذلك أمران: إن الأهواء لها تأثيرها، أن في أفعال العقل أو في أفعال الإرادة؛ فالشَّرِه أي الهوى الذي يتعلق بحاسة الذوق، يمكنه أن يؤثر في العقل، إذ يدفعه إلى الحكم بأنّ طعاماً ما هو نافعٌ للصحة بينما هو مُضِرٌّ بها. وبالتالي، فإن الإرادة أيضاً سوف تتأثر بالحكم الفاسد الذي يصدره العقل. غير أن الإرادة يمكنها التحكّمُ بتأثير الأهواء. كيف؟ يتم ذلك بإزاحة الموضوع الحسي الذي تنزع إليه تلك الأهواء. فإذا حكمت الإرادة على الحواس بعدم النظر أو الشم أو تذكر طعم الأكل، سرعان ما ينكفى الهوى ويزول، إذ يفقد موضوعه الحسي. فتحكُّم الإرادة بالأهواء هو تحكم "غير مباشر" لأنها تمارسه على الأهواء بواسطة الإحساس.

نفهم مما تقدّم أن الإرادة هي أسمي ملكةٍ في الإنسان وذلك لأسباب أربعة:

1- لأن ملكات الإدراك أي الحواس، والعقل والذاكرة، تخدم الإرادة وتُقدم لها المعارف.

2- لأن الملكات الاقية ومن بينها الأهواء تخضع للإرادة، وتعمل بما تأمرها به.

3- لأن الإرادة ملكةٌ موحدّة ومُحوِّلة، وباستطاعتها، إذا ما عجنتها المحبة الإلهية، أن تقودنا إلى الاتحاد بالله.

4- لأن الإرادة، لكونها حرّة، تجعلنا قادرين على خيارات مسؤولة، ومن ثم فإنها تجعلنا نستحق بها التقدير والثواب.

إن هَم القديس يوحنا الصليب ينصَبُّ على إنماء حب الله فينا، فيجعلنا نُضحي بكل ما من شأنه أن يحُول دون ذلك الحبّ، ويحضنّا على عمل كل ما يُنميه. وما تبقي، فلا قيمة له، إذ إننا، "عند الغروب، سوف نُدان على الحبّ"

القديسة تريزا ليسوع الطفل

"الشيء الوحيد الذي لا يتناوله الحسد إنما هو المكان الأخير . لا يخرج من حد الأباطيل ودواعي الكآبة للروح. إلا هذا المكان الأخير. "سبيل الإنسان ليس دائماً مرهوناً بقدرته" (ار10:23)

وأحياناً نجد أنفسنا طامحين إلى ما يلمع. حينئذ فلندرج نفوسنا بتواضع في عداد المفقودين ولنعتبرها نفوساً صغيرة جداً يلزم الله الحنان أن يعينها في كل آن. فحين: يرانا نعترف بعدمنا كل الاعتراف حين نقول له "لقد تزعزعت قدمي فثبتني يا رب برحمتك " (مز 18:93) يمد إلينا اليد. إذا أردنا أن نأتي عملاً كبيراً ولو مدفوعين بعامل الحمية فإنه يتركنا وشأننا.. يكفي إذاً أن نتواضع وأن نحتمل نقائصنا بوداعة. هذه هي القداسة الحقة لنا ".

تتحدث القديسة تريزا ليسوع الطفل عن الاتضاع والمكان الأخير، وهي تعلم أن النفس البشرية تسعى إلى المكانة الأولى والاعتداد بالذات. تعلمنا القديسة تريزا أن الخطر يكمن دائماً في المكانة الرفيعة، لأن المكانة الرفيعة تحفز قوات الشر وتثير حسدهم.

خامساً: العمل على تحقير الذات، والرغبة في احتقار الناس لها

لا يكل أبداً الزاهد أو الناسك على تحقير ذاته، وكأنها عدمَ، بل ويسعى جاهداً لينال احتقار الغير وليس رضاهم. فهو يتحدث عن ذاته باحتقار حتى لا تكون موضوعاً افتخار أو مصدر كبرياء. ويقوم بعملية إذلال للنفس، ويتمنى أن، يفعل الآخرون معه ما يفعله مع نفسه. ولا نجد إطلاقاً مشاعر الشفقة أو العطف على الذات من جانبهم، ويرفضونها من جانب الآخرين .

جاء في حياة الأب آمون ما يلي :

" تنبأ الأب أنطونيوس عن الأب أمون قائلاً : أنت تنوي أن تتقدم في مخافة الله. فأخرجه من القلاية وأراه صخرة وقال له : أشتم هذه الصخرة وأضربها. ثم قال له الأب أنطونيوس : هل تكلمت الصخرة؟ أجاب : كلا. قال له الأب أنطونيوس : هكذا أنت أيضاً ينبغي أن تبلغ إلى هذا القياس"[21].

القديسة تريزا ليسوع الطفل :

" أما أنا فأشعر بفرح كبير لا حين يراني الغير ناقصة فحسب، ولكن على الأخص حين أشعر بأنني ناقصة. الثناء لا يجلب لي إلا بالضد وبالكدر "

هكذا هي رؤية القديسة تريزا ليسوع الطفل لتشترك هي أيضاً مع كبار النساك والزهاد في وجهة النظر بل قل في حياة النسك الحقيقية .

إن القديسة تريزا ليسوع الطفل ترى أن مديح وثناء الناس يسببان ضرراً وأذية لها.

[21] أقوال الآباء الشيوخ، آباء الكنيسة، منشورات النور، 1983، ترجمة معهد القديس يوحنا الدمشقي، البلمند، ص67، الأب آمون، رقم8.

القديسة تريزا ليسوع الطفل:

"آه، أي سم من آيات المديح يدس يومياً لمن يشغلون المراتب الأولى"

"إله من بخور مشوم ! كم يلزم النفس أن تتجرد من ذاتها لكيلا تتأذى من ذلك".

الخاتمة

من خلال العرض السابق على كافة المستويات نستنتج بعض الخطوط التي نراها مجتمعة في رؤيا واحدة:

1- الفطنة والاعتدال والاتزان المثالي، من حيث المأكل والمشرب والمسكن، وذلك لأن المحبة أكثر أرضاء لله من الصوم، لأن شريعته تأمرنا بها، بينما الصوم يختص بنا وبإرادتنا.

2- الحكمة أو الفلسفة، أو مصالحة النفس والجسد. البعد عن "تطرف" في ممارستهم النسكية. والفطنة والحكمة هما من ثما التأمّل والقراءة المعمّقة للكتاب المقدّس.

3- حبّ التأمّل، قائماً على السعي إلى العزلة، والابتعاد عن لقاءات الزوّار، والشعور بالشقاء البشري.

4- ممارسة أعمال التوبة، وممارسة الفقر المدقع، والتقشف والإماتات، وانسحاق القلب والعودة المستمرة إلى الذات، كل هذه حقائق تنم عن نفس زاهدة، ونفس متجرّدة عن حطام الأرض، تشهق إلى الله.

5- لاشك في أن اللاهوت النسكي يتصف بالبعد الاسكاتولوجي، وهذا يعني، باختصار، شدَّ القلب والعقل وتصويبَ السير نحو أورشليم السماويّة، حيث الحياة الجديدة والسعادة، وحيث الرؤيا الإلهية الأبدية. إن الحياة هنا على الأرض، تبتدئ في حياة الأسرار، ولكنّها لا تبلغ غايتها إلاّ هناك.

6- الزهد هو نقيض العالم الذي يلفّنا من كل صوب، وقد دخل عنوة وبدون حياء إلى حياتنا.

7- الزهد طريق القداسة وطريق المعرفة وطريق الرسالة.

8- الزهد وديعة ثمينة أوصلها إلينا الآباء والأجداد لنحافظ عليها ونتابع المسيرة.

صلاتي أن ندخل جميعنا في هذا المنطق. فعلى من أتخذ يسوع المسيح أساسا لحياته ومستقبله، فكرّس له شبابه ومواهبه وحياته، أن يتفرغ من ذاته وممّا بقي من العالم في داخله، ليمتلئ من الله. وهذه عملية لا تنتهي بيوم أو يومين، بل تمتدّ على سنين وسنين.